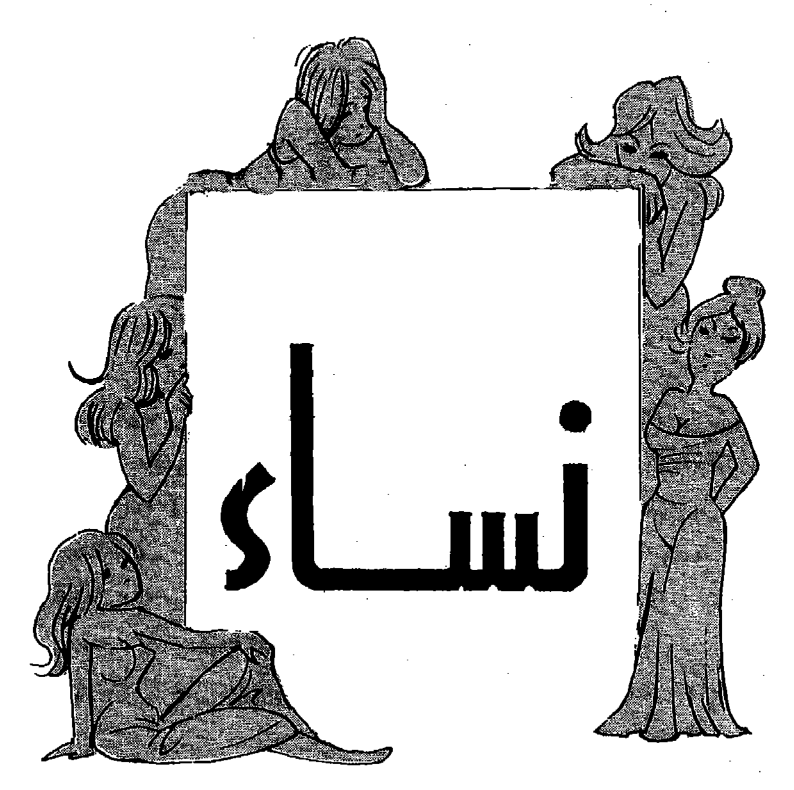
نساء

في حياة عدو المرأة



محمد السيد شوشة



في حياة عدو المرأة

« توفيق الحكيم »

« عدو أم حبيب »

اشتهر توفيق الحكيم بأنه عدو المرأة رقم (١) فهل ظل طوال حياته على هذا العداء ، أم انقلب الى حبيب ؟

هذه رحلة فى قلب وعقل وأدب عدو المرأة ، فى سبيل الوصول الى جواب على هذا السؤال المحير .

وأنا أسير فى كتاب « نساء فى حياة عدو المرأة » على نفس النهج ، الذى سرت عليه فى كتاب « ٨٥ شمعة فى حياة توفيق الحكيم » عن طريق المونتاج الأدبى ، من خلال واقع مؤلفاته المائة ، التى روى فيها سيرة حياته بقلمه ، تارة بطريق مباشر فى مؤلفاته الذاتية ، التى تفصح بكل وضوح وجلاء عن شخصيته الحقيقية مثل : « يوميات نائب فى الأرياف » و « القصر المسحور » و « حمار الحكيم » و « زهرة العمر » و « تحت المصباح الأخضر » و « من البرج العاجى » و فن الأدب » و « عدالة وفن » و « أنا وحمارى وعصايا والآخرون » و « سجن العمر » و « وثائق من كواليس الأدباء » و « تحديات سنة ٢٠٠٠ » و « توفيق الحكيم الساخر » .

وتارة أخرى بطريق غير مباشر ، فى أعماله الموضوعية التى يسقط فيها ذاته ، على الكثير من أبطاله الروائيين ، مثل « عودة الروح » و « عصفور من الشرق » وراقصة المعبد » و « الرباط المقدس » . .

محمد السيد شوشة

الفصل الأول

.. المرأة .. وعدو المرأة ..

★ هدى شعراوى زعيمة الحركة النسائية هى التى أطلقت عليه لقب « عدو المرأة »

★ المرأة رمز الحية والشيطان

★ أهى أحط من الرجل ؟ . .

★ لماذا طالبت الملكة السابقة نازلى بعزله من الحكومة ؟

★ يحذر من الخطر بعد أن أصبحت المرأة تحكم العالم اليوم .

« لا . . للسفور »

اشتهر بلقب « عدو المرأة » فهل كان حقيقة عدوا أو حبيبا ؟

لقد بدأت عداوته للمرأة ، وهو فى الخامسة والعشرين فى عام ١٩٢٣ الذى كتب فيه مسرحية « المرأة الجديدة » التى قدمتها فرقة « أخوان عكاشة » على المسرح فى عام ١٩٢٦ .

وهى أول مسرحية ناصب فيها المرأة العداء .

— كتب فى سجن العمر يقول :

— بدأت العمل فى مسرحية « المرأة الجديدة » التى أخذت تخلع « اليشمك » خصوصا بعد مظاهرة السيدات المشهورة ، وتفريق البوليس لهن وعلى وجوههن البراقع البيض . كان حقا من معالم ثورة ١٩١٩ اشتراك السيدات فيها لأول مرة فى تاريخ مصر ، مما كان يبشر بقرب تحقيق أحلام قاسم أمين فى مطالبته بالسفور . وكانت لى أفكار معينة عن مستقبل المرأة وسفورها أردت أن أبرزها فى تلك المسرحية .

وهى أول كوميديا اجتماعية ، تقول :

— « لا .. للسفور »

ولما أصدر الحكيم تلك الرواية فى كتاب عام ١٩٥٦ بعد نحو ثلاثين عاما من تأليفها ، سرعان ماغير رأيه فى أمر السفور ، الذى كان يرى أنه يؤدى الى انهيار الحياة الزوجية بسبب اختلاط زوج هذه بزوجة ذاك . وقرر أن تلك المخاوف لم تكن لها محل ، فالأيام أثبتت أن سفور المرأة لم يؤثر فى فكرة الزواج بصورة تدعو الى الانزعاج .

كما عاد ونقد نفسه نقدا لاذعا . بسبب معارضته للسفور .

فقد سأله فؤاد دوارة فى حديث الى مجلة الاذاعة والتليفزيون . عن أسخف مسرحية كتبها ؟ ..

فقال :

— هى« المرأة الجديدة » التى كتبتها فى أوائل العشرينات ومثلتها فرقة عكاشة عام ١٩٢٦ وكنت من حسن الحظ فى فرنسا ، فلم أشاهدها .

وسخافتها راجعة لى أنها ـ وهى من وحى معركة السفور والحجاب التى كانت دائرة وقتئذ ـ دلت على موقف سخيف ، موقف شاب اختار أن ينحاز إلى جانب التحيز من سفور المرأة بدلا من الوقوف إلى جانب محررها « قاسم أمين » .

وهل هناك أسخف من منظر شاب يلبس فى مثل هذا المجال عمامة الوعظ والارشاد ؟ والشباب دائما يجب أن يكونوا طليعة التقدم فى كل شىء ..

وهذه هى مسرحية « المرأة الجديدة »

يرفع ستار الفصل الأول . على صالون فى بيت زئر النساء محمود بك وصفى فى قليوب . والوقت ساعة الغروب . وصاحب البيت وأصدقاؤه نائمون على المقاعد من تأثير سكرة الأمس . فيدخل البيت سامى الذى ستتضح لنا شخصيته فيما بعد ، ويوقظ الجميع ، ويتنبه زئر النساء الى أن الوقت ، هو وقت مجىء احدى عشيقاته ، فيقع فى مأزق . لكن العشيقة لا تأتى ، بل تأتى ابنته ليلى التى أقصاها عن الحياة معه بعد وفاة أمها لتعيش بعيدة عنه مع عمتها العجوز فى القاهرة ، ثم اضطرت للعودة بعد وفاة العمة العجوز .

وتكون النهاية مطابقة لفكرة المؤلف التى تعارض السفور ، وترى فى اختلاط الجنسين وخروج المرأة من خدرها ، خطرا على الحياة الزوجية .

لقد جعل الجو مهيأ لتلك الفكرة المعارضة ، بوجود الأب زئر النساء الذى يريد ابعاد ابنته عن الحياة معه ليعيش حياته العابثة كما يشاء ، ووجود الساكن الأعزب الذى يعيش مع عشيقته نعمت التى هجرت زوجهاسامى الذى كان على علاقة مع ليلى ، فالزوجة والفتاة صديقتان ، تؤمنان بالحياة العصرية .

وينتقل بنا الفصل الثانى إلى شقة سليمان بك حلمى ابن الذوات الأعزب المفلس . وهى شقة فى عمارة يمتلكها محمود بك وصفى والد ليلى . فنراه مع عشيقته « نعمت » زوجة سامى . وقد اقترض منها سليمان بك ثلثمائة جنيه . ويأتى إليهم هاشم وكيل أعمال صاحب البيت يطالبه بالايجار المتأخر ، فلا يجد لديه شيئا ، فيقترح عليه الزواج من ليلى التى ست،صبح مالكة للعمارة ، فيرحب بتلك الفكرة ليتحول من مستأجر الى مالك .

ونعود فى الفصل الثالث الى منزل محمود بك وصفى فى قليوب وقد جاء اليه العريس المفلس طالبا يد ابنته للزواج ، فتحضر نعمت فجأة مطالبة بدينها على العريس فيسدده الأب ، منعا للفضيحة ، على اعتبار أنه سيسترده من العريس . لكنه يكتشف الحقيقة فيما بعد ويعلم أنه مفلس .

وهذا فى مشهد الختام ، الذى يفاجىء فيه الزوج المخدوع زوجته بين أحضان العريس ، فلا تكون مفاجأة له وحده بل وللعشيق أيضا الذى لم يكن يعلم أنها زوجته ، لأنها كانت تعتبر علاقتها مع الزوج علاقة صداقة .. فيلقى عليها الزوج يمين الطلاق .

وذلك فى الوقت الذى تظهر فيه العروس ليلى ، ويتضح للعريس أنها على علاقة بالزوج . يقول لها : أهى صداقة أيضا ؟ ..

ثم يأتى الأب بالمأذون ليعقد قران العروسين ، بعد اكتشاف تلك الحقيقة فنرى العريس يخاطب العشيقة قائلا :

— ماقلتليش ليه إنك على ذمة راجل ؟ .. صداقة لاغير .

وينظر الى العروس قائلا :

— وأنت كمان صداقة لاغير ؟ ..

ويهتف قائلا :

— فلتحيا صداقة الرجل بالمرأة . فليحيا السفور !

« الزعيمة هدى شعراوى »

كانت شهرته بلقب « عدو المرأة » لم تعرف الا فى عام ١٩٣٥ وكانت التى اطلقته عليه زعيمة الحركة النسائية وقتئذ هدى شعراوى .

فقد طلبت منه كتابة تمثيلية من ذات الفصل الواحد ، لتمثل فى دار « المرأة » فى « الاتحاد النسائى » فى ذلك العام ، فكتب مسرحية بعنوان « جنسنا اللطيف » مليئة بالسخرية من اشتغال المرأة بالطيران .

وقد مثل سليمان نجيب المسرحية فى دور مصطفى زوج « مجدية الطيارة » أمام مجموعة من آنسات الطبقة الراقية ، وهن شريفة لطفى فى دور « مجدية » ونادية نصيف فى دور « كريمة المحامية » ، وأمينة السعيد فى دور سامية الصحفية .

وكتب فى عام ١٩٣٨ مسرحية ثانية من ذات الفصل الواحد بعنوان « حديث صحفى » مثلت على مسرح دار الأوبرا فى حفل الاتحاد النسائى السنوى ، قام فيها سليمان نجيب بدور « هو » أى « عدو المرأة » وأمينة السعيد بدور « هى » فى شخصية صحفية ، جاءت لتحصل منه على حديث صحفى ، متنكرة فى شخصية فتاة معجبة ، جاءت تطلب يد عدو المرأة للزواج .

وقد استهل المسرحية بالهجوم على المرأة ، فنراه يملى مقالا على سكرتيرته الجالسة أمام الآلة الكاتبة ، قال فيه :

— وإنى من رأى الفيلسوف الالمانى شوبنهور ، فهو قد فهم الحقيقة فهذا الجنس اللطيف ، لا يتغير أبدا ، فى أى زمان ولا مكان . إنى كنت أرى وما زلت أرى أن المرأة مخلوق .

السكرتيرة تقف فجأة وتقول :

— تافه .

فيلتفت اليها وهو يقول :

— أيش عرفك ؟

السكرتيرة :

— مش حضرتك كنت ناوى تقول كده بالضبط ؟

هو :

— أبدا . أنا كنت ناوى اقول حاجة ثانية بالمرة . لكن كنت حاقول كده بعدين وحيث إنك قلتيها . فمفيش لزوم اكسفك .

السكرتيرة :

— ميرسى .

هو :

— الناس اللى بيقولوا عنى إنى عدو المرأة غلطانين ، لأنى زى ما أنت شايفة دلوقت ما أقدرش أبدا أكسف واحدة ست .

ورسم نماذج شاذة للمرأة فى كثير من المسرحيات ، فهى « أداة تحطيم للرجل فى « حياة تحطمت » أو أمرأة انتهازية تبيع زوجها بالمال فى « سر المنتحرة » وهى كأس للشر والجريمة فى « الورطة » أو زوجة خائنة سواء من الملكات أو سيدات المجتمع فى « شهر زاد » و« براكسا أو مشكلة الحكم » و« الرباط المقدس » و« الصندوق » .

« الحية والشيطان »

وفى قصته القصيرة « وكانت الدنيا » صور حواء على مثال الحية والشيطان .

فقد خلق الله آدم وسواه بيده ونفخ فيه من روحه ، وعلمه أسماء كل شيء ، بينما جاءت حواء من صنع إبليس ، بوحى من الحية ـ كما ورد ذلك فى تاريخ أبى الفدا .

لقد اراد أن يخلق كائنا حيا على مثال آدم من الطين ، فلم يستطع لكنه قد يستطيع أن يخلق هذا الكائن من الشيء الحى .

وتحسس إبليس برفق جسد آدم ، ورأى أن يسرق أحد اضلاعه ، ويخلق منه هذا الكائن الحى .

استل أبليس الضلع الحى بخفة ومهارة ، وسواه على سورة آدم ، ولكنه تصرف قليلا ، ووضع شيئا منه ، وانتصب ذلك المخلوق الجديد يتمطى وعندئذ ارتفع صوت من بين الأشجار ، يقول :

— مرحى . مرحى .

فالتفت ابليس ، فاذا هى الحية واقفة على رأسه ، مطلة على فعله فبادرها بلهجة الظافر :

— ما رأيك الآن ؟

فقالت فى ابتسامة خبث ، وهى تنظر الى المخلوق الجديد :

— بديعة حواء

فنظر إبليس الى الحية مستفهما مستغربا :

— « حواء » ؟ لماذا تسمينها حواء هكذا ؟

فأجابت الحية بمكر ودهاء :

— لأنها صنعت من شيء حى .

وقال إبليس للحية :

— أسائل نفسى دائما ، لماذا لا نكون اصدقاء ، انى أحمل لك أيتها

الحية كل تقدير ، واحمل لذكائك كل أعجاب . أتريدين أن أخصك بسر .
لقد كنت أفكر فيك ، وأنا أصنع هذا المخلوق الذى سميته حواء .

— كما كنت تفكر فى نفسك .

— أحقا ما تقولين ؟ أترين فى هذا المخلوق شيئا منى ؟

— بلا شك . انظر الى حركاته ، والى رشاقته ، بل الى بريق عينيه ، إن فيه أثرا من الطين . لكن عينه ايضا لفحة من النار . أنظر . أنظر فى حواء بعض ما فيك . الطين والخفة والسرعة والاحراق .

وتم بعد ذلك ما هو معلوم . . فقد ضعف أدم الذى يمثل « العقل » أمام حواء رمز الطبيعة والغريزة ، وأكل معها من الشجرة ، وانتشى من عصيرها وثمل ، وامتزج بحواء ، وطردا من الجنة الى الارض ، وإنبتها الجنين الأول وتكاثرت الذرية وتعددت « النسخ » وجاء قابيل فقتل هابيل .

وكانت الجريمة الأولى ، وعرف الشر على الارض ، واختلطت الصور الجيدة بالرديئة ، كما اختلطت الفضيلة بالرذيلة ، وامتزجت النسخ الاصيلة بالدخيلة ، ولم يعد فى الامكان فرز وريث آدم من وريث حواء ، ولا الكمال من النقصان ، ولا النور من النار ، ولا لمعة الحق من خدعة الشيطان .

امتزجت فى الآدمى الواحد كل عناصر الخير والشر ، والحسن والقبح ، والحقارة والسمو ، والتفاهة والعظم والعدل والظلم ، والعقل والطيش والضعف والبطش .

وكانت الدنيا .

« أسطورة هندية »

وروى قصة خلق المرأة فى مقال بعنوان « المرأة والحرية » فى كتاب « تحت شمس الفكر » كما جاءت فى اسطورة هندية ، وكيف خلقت لتكون مصدر سعادة للرجل ، واذا بها تكون مصدر تعاسته ، فقال :

— إن الاله « تفتاشترى » عندما خلق الدنيا ، تناول فى يده العناصر كلها ، وصنع منها الشمس والقمر والنجوم والجبال والرياح والبحار والاشجار والحيوان ، وأخيرا الانسان ، فى صورة الرجل الأول . وجاء ذلك شاملا لكل العناصر مستنفدا لها جميعا . فلما أراد الاله بعد ذلك خلق المرأة لم ير بدا من أن يستعير لها صفات غيرها من الكائنات ، فأخذ لها من الشمس ضياءها ومن القمر أستدارته ، ومن النجوم بريقها ، ومن الجبال عنادها ، ومن الرياح تقلبها ، ومن البحار ميوعتها ومن الاغصان مرونتها ومن الندى دموعه ، ومن الورق خفته ، ومن اليمام وداعته ، ومن النمر قسوته ، ومن الطاووس خيلاءه ، ومن النار حرارتها ، ومن الجليد برودته .

وعجن الاله كل هذه الصفات وصنع من تلك العجينة ذلك المخلوق الذى يسمى « المرأة » وقدمه الى الرجل ، هدية تؤنسه وتسره وتسعده فتقبلها الرجل شاكرا ، ولكن لم يمض قليل وقت ، حتى رأى الاله ذلك الرجل يأتى اليه شاكيا :

— خذ هديتك . إنه سلطان طاغ . إنه مخلوق لا منطق له . أنه يسير فى اتجاهات مختلفة ، وطرق متعارضة ، ما يحبه اليوم يكرهه غدا ، وما رفعه أمس خفضه اليوم . من أين جئت به ، وكيف صنعته ؟ كل المتناقضات فيه ، كأنه ثوب مرقع ، فيه من كل لون قطعة ، ومن كل مادة بضعة .

فقال الاله :

— وما الذى يزعجك من تناقضه وتقلبه ، ما دمت أنت المالك لزمامه ؟

فقال الرجل :

— من قال إنى المالك للزمام ؟ لقد قال لى حقا إنه جاء لخدمتى . . ومصلحتى النهائية ولهنائى . ولرفعتى . ولكن ما استقر فى حياتى حتى غدا هو كالسلطة الطاغية فى الشعب الضعيف .

عصر الحجاب
بعد ٢٠٠٠ سنة

وتنبأ عدو المرأة بتلك الانتصارات التى حققتها المرأة الآن ، ولكن فى سنة ٢٠٠٠ حتى تفقد أنوثتها وتصبح ذات عضلات كالرجال ، غير أنها لا تلبث أن تعود الى عصر الحجاب بعد الفى سنة .

فقد كتب مقالة بعنوان « المرأة بعد ٢٠٠٠ سنة » فى مجلة « آخر ساعة » بتاريخ ١٠ يوليه ١٩٤٦ قال فيه :

— أردت أن أتخذ مهنة الفلكى لحظة ، وان أسدد المنظار الى النجوم واطالع الغيب ، لأرى ما سوف يحدث للمرأة من تطور فى مستقبل الأيام واستطيع أن أؤكد للناس انى ابصرت الذى سوف يقع على وجه الدقة والتحقيق وهو كالآتى :

— فى سنة ٢٠٠٠ تؤلف الوزارة .

— فى سنة ٢١٠٠ تصبح قاضية فى المحاكم العليا وترأس محاكم النقض وتتولى منصب النائب العام .

— سنة ٢٢٠٠ تحتل المراكز العليا فى الجيش . وتستطيع أن تكون قائدة ورئيسة لأركان الحرب . وتقود الدبابة والطيارة وتلقى القنابل الذرية والصاروخية ، وتسدد أشعة الموت وتقود الاساطيل وتدير البوارج ، وتعين فى منصب الاميرال والمارشال فى البر والبحر والجو .

— سنة ٢٤٠٠ محيت الفروق تماما بين الرجال والنساء فى الوظائف العامة والخاصة . وفى المظاهر الخارجية والداخلية . فلم تعد هناك ثياب للمرأة وثياب للرجل . واختفى الفرق بين شعر رأس المرة وشعر رأس الرجل وأدى تعميم الخدمة العسكرية والالعاب الرياضية للجنسين الى ظهور العضلات فى جسم المرأة وضمور الثديين ، وقسوة النظر فى العينين .

— سنة ٢٥٠٠ نقص النسل الآدمى نقصا مروعا ، فلم يعد هنالك ما يغرى الرجل بالاقتراب من المرأة . وزالت من الاذهان كلمة « السحر » أو « الفتنة » التى قيل فى الاساطير الشعرية القديمة إن المرأة اختصت بها منذ آلاف السنين .

— سنة ٢٦٠٠ وقع حدث عجيب أقام الدنيا وأقعدها . فقد ظهرت بين النساء امرأة شاذة تركت شعر رأسها يسترسل على كتفيها فأحاط بها الرجال والتهموها بنظراتهم . وتبعوها فى كل مكان دهشين معجبين الى أن انقذها من الزحام رجال ونساء من البوليس .

— سنة ٢٧٠٠ انتشرت بين النساء بدعة ترك الشعر وإرساله على الكتفين . كما ظهرت بينهن « موضة » صنع ثياب خاصة بهن .

— سنة ٢٧٥٠ وقعت لأول مرة منذ قرون حوادث غرامية بين الرجال والنساء على النحو الذى ورد فى القصص والشعر القديم . ورفض كثير من النساء مزاولة الأعمال العامة رغبة منهن فى الانقطاع لتربية ثمرة غرامهن .

سنة ٢٨٠٠ طغى جنون غريب على مشاعر النساء ، هى عاطفة « الامومة » وكان من أثر ذلك ترك النساء اكثر الوظائف فى الجيش والقضاء والبوليس ، مفضلات حياة البيت .

— سنة ٢٩٠٠ تطور جرىء فى حياة المرأة قد وقع ، لقد لبست امرأة « برقعا » أخفت به شطرا من وجهها فلم يظهر منه غير عينيها البراقتين . وقد فتن بها غدة رجال ، انتحر بعضهم على باب بيتها غراما .

— سنة ٣٠٠٠ عمت بين النساء موضة لبس « البراقع » .

— سنة ٣٥٠٠ استقرت المرأة فى البيت ، ومحيت من الاذهان كل تلك الافكار التاريخية العتيقة التى شاعت قديما عن خروج المرأة الى المجتمع ومشاركة الرجل فى أعماله .

— سنة ٣٩٤٦ عم الدنيا نظام الحجاب التام للمرأة . فلم يعد هناك اختلاط بين الرجال والنساء ، ولم تعد تظهر المرأة فى مجتمعات الرجال .

ولم يعد للخاطب حق الانفراد بخطيبته قبل الزواج . وقد لوحظ فى ذلك الجيل أن العزوبة كادت تختفى وأن الزواج قد اشتد الاقبال عليه الى حد غير معروف منذ مئات الاعوام . وأن الفساد الخلقى قد خفت وطأته .

ويختتم عدو المرأة مقاله بقوله :

— وهنا طرحت المنظار من يدى . ولم أرد أن أمضى فى مطالعة الغيب ومشاهدة سنة ٣٩٤٦ خشية أن أتعرض لسخط أحزابنا النسائية المنادية بالتقدم والتحرر والتجديد ، وفضلت أن أعود فى الحال الى سنة ١٩٤٦ ، حتى لا أتهم بالرجعية والتأخر والجمود .

« الجوارى البيض »

وكان يرى فى الماضى أن المرأة المصرية ما زالت من الجوارى البيض ، فقد خرجت من عصر الحريم . أيام الاقطاع فى عهد الارستقراطية الاجنبية من المغول أو الاتراك العثمانيين . فيقول فى رواية « حمار الحكيم » :

— كان عمل زوجة السيد التركى العثمانى ، وهى فى أكثر الاحيان من الجوارى البيض ، فلا شىء الا متعة سيدها ، وهى على كل حال قد وضعت فى الحريم ، لا شخصية لها ولا مهمة ولا عمل الا ما يمكن أن تقوم به المملوكات .

وانقضى عهد النظام الاقطاعى فى مصر ، وجاءت العصور الحديثة . فلم يتغير بالطبع هذا الوضع ، فالمالك الغنى ، أو الفلاح الموسر الذى حل فى الأرض محل السيد العثمانى ، قد ورثه كذلك فى طباعه وقلده فى ميوله وعاداته ، فتزوج هذا الفلاح المالك بالجوارى البيض ، وجعلهن فى الحريم .

ثم ذهبت بدعة تقليد الاتراك بالزواج من الجوارى البيض . ونشأت القومية المصرية ، وظهرت مبادىء جديدة واتجاهات حديثة ، وتعلمت المرأة المصرية فى المدارس والجامعات ، وعرفت كيف تتكلم فى المجتمعات وتكثر من الفاظ الحرية والمساواة بالرجل ، وحقها فى هذا وذاك ، ورغبتها فى محاكاة اختها الأوربية ، ولكنها بقيت حتى تلك السنة التى أحدثك فيها (١٩٤٠) وريثة الجوارى البيض .

« أحط من الرجل »

هل المرأة حقا أحط من الرجل ؟

هذا مقال كتبه فى مجلة اكتوبر بتاريخ ١٨ يناير ١٩٨١ وهو يتضمن ثلاثة مقالات الأول بعنوان « النساء فى البرلمان » سبق له نشره فى أخبار اليوم بتاريخ ٥ إبريل ١٩٤٧ والثانى رد عليه من محمد فريد وجدى صاحب جريدة « الدستور » التى كان يصدرها حتى عام ١٩٣٧ وشجع العقاد فى بداية حياته على الكتابة فيها ، وهو بعنوان « الرجل هو المسئول عن هذه المصيبة » . والثالث تعليق الحكيم على هذا الرد بعنوان « مجلس ثالث ، لا هو شيوخ ولا نواب » وهما منشوران فى اخبار اليوم ايضا بتاريخ ١٢ ابريل من نفس العام .

وأذكر أنه كان لى دور فى إعادة نشر المساجلة ، بين الحكيم ووجدى ، فعندما اذيعت مسلسلة « العملاق » فى التليفزيون ، وتردد فيها اسم محمد فريد وجدى كمشجع للعقاد على الكتابة فى الدستور قال لى الحكيم ، إنه توجد مساجلة بينى وبين الاستاذ وجدى على صفحات اخبار اليوم فى النصف الثانى من الأربعينات أريد الاطلاع عليها ، لانها مفقودة عندى .

فبحثت عن تلك المساجلة ، وقدمت اليه نسختى اخبار اليوم المنشورة بهما ، حيث اعاد نشرها على صفحات أكتوبر بعد مضى أربعة وثلاثين عاما على تاريخ النشر الأول .

وقد استهل الحكيم مقاله بقوله :

عرض على مجلس الشيوخ اقتراح خطير الأثر . لو تمت الموافقة عليه لحدث انقلاب فى روح الشرق . ذلك هو اقتراح سعادة على زكى العرابى باشا بمنح النساء حق الانتخاب . ولقد ذهب المقترح الى أن الدستور المصرى لم يقصد التفريق بين الذكور والاناث .

ومضى المقترح فى الدفاع عن اتجاهه بقوله :

— ولكن المهم أن نتحرر من تلك العقيدة الفاسدة التى نشأت واستقرت قرونا وأجيالا بأن المرأة أحط من الرجل ، ولا يصح أن ترتقى لمستواه .

وتساءل الحكيم :

— كيف ظهرت هذ الفكرة الخاطئة ، أن المرأة أحط من الرجل لأنها لا تساويه أو تحاكيه ؟ أغلب الظن أن هذه الفكرة نبتت فى الغرب عند نساء متحررات متبذلات مريضات بمركب النقص خيل اليهن أن التشبه بالرجل شىء طريف يلفت اليهن النظر . وكانت أول امرأة جرؤت على تدخين لفافة التبغ تقليدا للرجل ، هى تلك الخارجة على كل وضع وطبيعة وبيئة . تلك التى يقولون عنها فى حانات الليل إنها من بنات الهوى .

ولم تلبث حركة التقليد أن نظمت . وإمتد الأمر الى المطالبة بما دعونه المساواة المطلقة بين الرجل والمرأة فى الحقوق والواجبات السياسية والاجتماعية الخ .

وجاء فى رد وجدى على الحكيم ، ما يلى :

— اننى لست ممن يخالف الكاتب فى مبدأ خطير ، ولكن فى جزئيات قد تأتى فى كتاباته عرضا . كما هو الشأن فيما نحن بسبيله اليوم . فقد قرر أن مبدأ مطالبة النساء بحقوق مثل حقوق الرجال نشأ لدى نسوة ممن يغشين الحانات ، ويدعين بنات الهوى . وفى رأيى أن هذا المبدأ نشأ فى النساء من تطور أصول الاجتماع ومقتضيات الحكومة الديمقراطية فليس يخفى على باحث اجتماعى ما كانت عليه العلاقات بين رأس المال والعمل منذ قرنين من الزمان حيث كانت الملايين من نساء أوربا تضطرهن الحاجة الحيوية للعمل فى المصانع ، فكن يكلفن أشق الأعمال ولا يعطين من الأجور ما يوازى ثلث ما يأخذه الرجال . وهل يمكن أن تنسى ما كان يكتبه العلماء الاجتماعيون فى ذلك العهد من لفت الانظار لبؤس النساء .

وعلق الحكيم على هذا الرد ، فلم يناقش فى منشأ المطالبة بحقوق النساء بل عاذ يؤكد موقفه السابق ، ويقول :

— اذا كان الرجال فى جنسهم الواحد قد جعلوا لأنفسهم مجلسين فى أكثر الدول ، مجلسا للشيوخ ومجلسا للنواب ، فما المانع من أن نجعل فى برلماننا مجلسا ثالثا هو مجلس النساء . يجرى فيه الاختيار مجرى مجلس الشيوخ . فيختار بعضه بالتعيين والبعض الآخر بالانتخاب من الطوائف بين ذوات المهن النسائية .

لكنه لم يلبث أن استنكر ذلك ، واضاف قائلا :

— وهذا رأيى : جنبوا المرأة الشرقية ياأهل الاصلاح هذا المنظر المزرى ، منظر نزولها فى المعركة الانتخابية ، تزاحم بالمناكب جموع الرجال ، حيث يختلط الحابل بالنابل ، وتلتصق الوجوه المغبرة بالوجوه الموردة ، والايدى المرفوعة بالهراوات بالمعاصم المحلاة بالاساور .

« الملكة نازلى »

والمقال الذى أثار عليه غضب الملكة نازلى وطالبت بعزله من منصبه الحكومى لانه ذكر اسم مدرستها الاجنبية « الدام دى سيمون » بين المدارس التى تخرج عرائس جوفاء ، هو مقال بعنوان « المرأة والبيت » منشور فى كتاب « تحت شمس الفكر » تحدث فيه عن جهل خريجات الجامعات بشئون البيت ، ولا تعرف الواحدة منهن كيف تقلى بيضة ، واذا مرض الطباخ ، فانها تغذى الزوج المحترم بزبدة أفكار افلاطون ، ثم قال :

— أما خريجات المدارس الاجنبية ، ممن تعلمن قشور اللغة الفرنسية أو الانجليزية ، ومبادىء البيانو ، فإنهن عرائس جوفاء صنعت فى حوانيت « الميردى ديو » و« الدام دى سيمون » لتوضع مع جهاز العرس فى بيت زوج مسكين ، كتب عليه أن ينكب بحمل هذه الدمية المتحركة الناطقة « بمون شير » و « ياشيرى » من حيث أراد معينا يعينه على حمل متاعب الحياة .

وكلتا المرأتين لم تفهم مما تعلمته فى هذه المدارس المختلفة غير شىء واحد ، حقها المطلق فى السيطرة على الرجل واخضاعه وعدم طاعته ، وجعله خادما لمطالبها ، نازلا على ارادتها ، واعتبار أى حق له قبلها تأخرا ، يقابل منها بالاحتجاج والازدراء .

وفى مقال « المرأة وأشواكها » يصف المرأة بأنها هى عدو الرجل المفكر ، وانها مخلوق عدوانى « غير سلمى » فيقول :

— المرأة من غير شك هى الزهرة المشرقة فى بستان وجودنا الآدمى ، زهرة لها نضارتها وعبيرها ، لكن لها أيضا أشواكها .

جمال المرأة وفتنتها ، هما فى نظرى أشواكها الحقيقية التى تضع فيها كل سموم سلطاتها وسطوتها ، فالمرأة إنما تشهر علينا نحن الرجال هذا

السلاح وتقف به فى وجه اعمالنا ، آمرة فينا وناهية ، صائحة بنا أحيانا أن تقف فى طريقنا كما تقف القافلة تحت تهديد قطاع الطريق ، لتأخذ منا كل ما عندنا من وقت وقلب ومال وجاه وشهرة . انها لتجردنا من كل شيء ، وتتركنا عراة تحت سلطان سلاحها المصلت المخيف .

لعلها تتهمنى بالمبالغة ، ولكن هل تستطيع امرأة أن تقول لى : ان هناك امرأة فى الوجود تعيش لغرض آخر غير سلب الرجل . انك اذا فتحت رأس امرأة لم تجد فيه غير هذه الغاية : السطو على الرجل . وها هو ذا تاريخ البشرية أمامنا . أين هى المرأة الجميلة التى لم تستخدم جمالها فى اخضاع الرجل ؟ امرأة فى التاريخ جعلت جمالها فى خدمة « غاية أسمى » من اخضاع الرجل ؟ ان المرأة مخلوق « غير سلمى » متى وجد فى يدها سلاح تحركت فيها غريزة السطو والحرب . . ان المرأة الجميلة هى عدو الرجل المفكر .

وفى مقال « المرأة والفن » يعترف بأن المرأة هى روح الفن ونبع الالهام للفنان ، لكنه يعود ويؤكد عداءه للمرأة . ويقول :

— إنى اذ أتكلم عن الفن ، لا يسعنى الا أن اعترف مرغما أن المرأة هى روح الفن ، ولو لم توجد المرأة على هذه الارض ، فربما وجد العلم ، لكن المحقق انه ما كان يوجد الفن . ذلك ان الالهام الفنى هو نفسه قد خلق على صورة امرأة ، وان لكل لون من الوان الفن عروسا . هى التى تنثر ازهاره على الناس . ما من فنان على هذه الارض أبدع شيئا الا فى ظل امرأة وهذا القول منى غريب ، ولابد توضيح قصدى حتى لا يقال انى رجعت الى فضيلة الحق ، واعنى الحق الذى تراه المرأة . كلا إنى لم أرجع الى هذه الفضيلة بعد . وكل ما فى المسألة أنى افرق بين المرأة كشيء يوحى بالجمال ، وبين المرأة كمخلوق يريد ان يستأثر بكل شيء فى حياتنا .

ان عداوتى لهذا المخلوق لن تنقطع ما دمت أخشى منه . أن عداوتى

ليست الا دفاعا عن نفسى ، فلو أن المرأة تمثال من الفضة فوق مكتبى أو باقة من الزهر فى حجرتى، أو أسطوانة موسيقية أنطقها واسكتها بارادتى ، ما كان لها عندى غير تقديس وأكبار لا يجدهما أحد ، ولكنها للأسف شيء يتكلم ويتحرك .

« صينية البطاطس »

وكان لا يدع مناسبة تمر دون مجاهرة المرأة بالعداء .

عندما عقد أول مؤتمر نسائى عام ١٩٣٨ بزعامة هدى شعراوى ، عارض فى منح المرأة حق الانتخاب ، وقال :

— اذا دخلت المرأة البرلمان ، فإننا لن نسمع صوتها فى داخله ، وإنما نسمعه فى خارجه .

وكان يطالب المرأة دائما بأن تجيد صنع صينية البطاطس لا حبا فيها وإنما لأنها اسهل صنعة . ولذلك قال :

— المرأة لا تستحق المطالبة بالحقوق السياسية لانها لا تعرف كيف تصنع صينية البطاطس .

واقترح اقامة مجلس نيابى خاص للنساء يعالجن فيه مشاكلهن السياسية .

وذكر فى مجال معارضته لاشتغال المرأة بالسياسة تلك الواقعة ، فقال :

— أن وزيرا يابانيا استقال من الوزارة ، لكيلا يؤيد اقتراحا لسيدة جميلة فى البرلمان ، كان يقف ضدها فى صف المعارضة . وذلك لانه كان يحب تلك النائبة .

وتزوج صديق له اثناء عمله فى الريف من إحدى المتحذلقات من خريجات قسم الفلسفة ، فقال لها :

— تعلمى كيف تقلين بيضة ، لا أن تجعلى زوجك يعيش على زبدة افكارك . فالرجل لا يستطيع ان يعيش على زبدة افكار جى دى موباسان أو سلاطة هـ . جـ ويلز أو ضلع برنشتين .

ويرى أن وصول المرأة الى أعلى مستويات الثقافة لا يعفيها من التدبير المنزلى وضرب المثل على ذلك بسيمون دى بوفوار صديقة سارتر ، فقال :

ـــ انها كانت تستقل فى حياتها معه بالعمل المنزلى ، مكتفية بمشاركته فى فكره ومشاعره وحواسه ، ولا تقبل مشاركته لها فى طهو الطعام ، لتشعر ـ كما تقول ـ بأنى أتميز عنه بشىء .

ومن بين آراء عدو المرأة فى المرأة :

× لست عدوا للمرأة كامرأة ، وأنما لعقل المرأة .

× عندما طالبت بنزع الحجاب . كنت اطالب بنزع الحجاب العقلى .

× المرأة ترتعد من منظر الفأر ، ولا تخاف من الاسد .

× المرأة كالجو دائم التقلب تنجذب اليه عندما يكون رقيقا ، وتبتعد عنه عندما يشن عليك حربا بالعواصف .

× لا يستطيع الرجل مقاومة طلبات المرأة ، لانها تملك سهاما تنفذ الى القلب .

× المرأة نشالة . . قلب المرأة للرجل ، وجيب الرجل للمرأة .

× الغيرة . . أثنان يتعاركان على فرخة .

× لست أخشى دقات قلبى وخفقاته . انها توقظ وحيى . ولكنى أخشى دقات قلب المرأة ، إنها تدق المسامير فى نعش حريتى .

« حكم المرأة »

وأبدى تخوفه من حكم المرأة للعالم اليوم ، فقال :

— المرأة الجديدة تحيرني . انها فاقت كل الحدود ، فهى تحكم العالم اليوم ولا ندرى سيأخذنا حكمها الى أين ؟

فاذا نظرنا الى خريطة العالم اليوم فاننا سنرى المرأة تحكم معظم البقاع الحيوية . فانجلترا وهى دولة عريقة عظيمة تحكمها امرأتان . والهند لثانى مرة يعاد فيها انتخاب أنديرا غاندى رئيسة للوزراء . وملكة الدانمرك امرأة . ورئيسة الحكومة فى سيرلانكا امرأة . وايضا فى البرتغال ويوغسلافيا .

وفى مصر وزيرة وعضو فى البرلمان ورئيسة مجلس ادارة ورئيسة لأخطر جهاز أعلامى :الاذاعة والتليفزيون .

وأوضح عدو المرأة أسباب تخوفه من حكم المرأة ، فقال :

— زمان كنت متخوفا وأحيانا معاديا لتحرير المرأة . أما اليوم فأنا متخوف منها لأننى اصبحت رعية فى مملكة المرأة ، لا أعرف ما مصيرى اذا عارضتها. لذلك أنا مضطر أن آخذ الامر بحذر شديد . وكل ما استطيع أن أفعله هو أن اذكر المرأة من وقت لآخر بأن المكانة التى وصلت اليها وجعلتها تحكم بعد أن كانت محكومة تستدعى شعورها بالمسئولية ، والحكمة فى استعمال هذه السلطة الواسعة استعمالا لا يقوى من حجة الرجل ضدها وجعله يتنبه الى هذا الخطر من هذا الواقع الجديد للمرأة وعندئذ تكون لنا الفرصة نحن الرجال لان نقوم ضدها بثورة ، تقلب حكمها ، ونعود نحن من جديد الى مقاعدنا .

« فى سبيل الشهرة »

لكن هل كان عداؤه للمرأة حقيقة أم تظاهرا فى سبيل الدعاية .

فقد كتب عبد الرحمن صدقى فى مقدمة نقده لمسرحية « شهر زاد » عن عدائه للمرأة ، يقول :

— ما كان أشد ما تكلفه صاحب « شهر زاد » من جهاد بعد نجاح مسرحيته لدى العديد من القارئين والنقاد وأنا منهم ، ليشتهر عنه فى طول البلاد وعرضها . وهو فى زهرة العمر وأوليات حياته الأدبية أنه عدو المرأة . فهل كان عدوها حقيقة ؟

الجواب على ذلك ، لانجده ، على الاطلاق فيما كان يرسله الحكيم فى كل حين وقتذاك ، من الاحاديث اللاذعة العذبة المتطايرة هنا وهناك ، لتنشرها على لسانه الصحف والمجلات عن « المرأة وصينية البطاطس » فذلك كله فى نظر بعضنا كان من قبيل المعاكسات لها من جانب الفتى الخجول لاستلفات نظرها ، وفى الوقت نفسه كان من جانب الفتى الطموح لاثارة الضجة حوله ، من غير ان يفصح كل الافصاح عن رأيه .

وهذا الظن الذى ليس فيه شىء من الاثم ، اذا كنا قدمناه هنا بين يدى كلامنا ، فذلك لكى يتيح لنا الفرصة ، لنحمد الله الى الاديب الفنان على ما أثاره حوله ، لاستلفات الغافلين ممن لم يلتفتوا من قومنا فى ذلك الحين ، فكان من ذلك ان لم يضع عليهم - بحمد الله - وقت . ولم يطل بهم الحرمان من مشاركتنا فى الاستمتاع بفنه .

وأيا كانت الحال ، فأنه سيان صح او لم يصح هذا الظن ، فالواجب الوحيد الاكيد عن موقف صاحب « شهر زاد » من المرأة هو أولا وآخرا ، عند « شهر زاد » نفسها ، بل شهر زاد وحدها ، فى أولى ما كتب الحكيم من مسرحياته الكبرى .

لكن هل كان دافعه الى استلهام اسطورة شهرزاد فى تلك المسرحية ،

ما تقوم عليه من اتهام النساء بالخيانة الزوجية ؟

يؤكد عبد الرحمن صدقى ، ذلك بقوله :

— من المشهور عن التفكير الشرقى عامة سوء الظن بالمرأة ، بما فيه من التبرير والتماس المعاذير لفرط الغيرة عند الرجل .

لكننا نخالف عبد الرحمن صدقى فى ان عداءه للمرأة ، كان تظاهرا فى سبيل الشهرة .

فانه حقيقة قد ناصب المرأة العداء ، نتيجة لمعتقداته الدينية ، وتمسكا بالتقاليد والموروثات فى عصر الحجاب .

فقد كانت تلك المعتقدات والموروثات تعتبر المرأة احط شأنا من الرجل وانها مجرد دمية يلهو بها الرجل ، و «عورة » ينبغى الا تغادر خدرها ، وتظل حبيسة سجن التقاليد .

الفصـــل الثـــانى

العـــدو الحبيـــب

* آدم وإحدى عشرة حواء .
* أيهن كانت حبه الأول فى طفولته ؟ الأسطى حميدة عالمة الأفراح أم بنت الجيران الشقراء أم الخادمة الريفية السمراء ؟
* مغامراته الغرامية فى « زهرة العمر » مع المصريتين سنية وريم والأوربيات سوزى وجرمين وساشا ونتالى .
* ماذا كتب طه حسين عن إحدى مغامراته فى باريس .

« الطفل العاشق »

لقد رأت الكاتبة صوفى عبد الله فى كتاب « حواء وأربعة عمالقة » أنه « عدو المرأة » كرجل شرقى و « حبيب المرأة » كفنان عاشق للجمال .

لكن متى خفق قلب عدو المرأة بالحب لأول مرة ؟

لقد تساءل فى كتاب « سجن العمر » عن مشاعره ، وهو دون العاشرة وتحدث عن حواء الأولى والثانية ، فقال :

— هل كان لى وقتئذ نوع من الاحساس بالجمال والشعور بالحب ؟

يبدو أنى شعرت بشىء كهذا ، على نحو غامض بالطبع . يخيل الى أنى كنت أحس باحساس خاص نحو طفلة فى مثل سنى أو أصغر قليلا . أذكر أنها كانت شقراء الشعر . هى ابنة لاحدى الأسر فى الأقليم ، كان بيننا وبينها تزاور . كنت أحلم ليلا بهذه الشقراء الصغيرة . وكنت أتلهف على اللعب معها . والغضب المكتوم والحسرة والحزن والاكتئاب ، كلما لمحت منها اهتماما بغيرى من الأطفال ، كما كنت أشعر بسعادة دافقة إذا أقبلت على وفضلتنى فى اللعب معها على سواى .

ولم يتعلق بحب الشقراوات فحسب ، بل والسمراوات أيضا ، فقد كتب يقول :

— ثم أحضروا من الريف طفلة فى العاشرة لتعمل عندنا خادمة . تأملت وجهها فوجدته دقيق القسمات خمرى اللون .. لست أدرى ما حدث فى قلبى الصغير يومئذ . كل ما أعرف هو أن ميلا غامضا جذبنى الى هذه الصبية اللطيفة فصرت أعطف عليها خاصة وأحميها ممن يغضبها أو ينتهرها ، الى أن اختفت يوما من حياتى ، جاء أهلها ذات يوم فى غفلة منى وأخذوها ، فحزنت كثيرا على ذهابها .

حـــواء الثـــالثـــة

« الأســـطى حميـــدة »

وأحب وهو فى سن الطفولة الأسطى حميدة الاسكندرانية العالمة ، التى كانت تحيى أفراح أسرته بين دمنهور والاسكندرية ، وقدم اليها قصته « العوالم » التى كتبها فى باريس عام ١٩٢٧ بهذا الاهداء :

— « إلى الأسطى حميدة الاسكندرانية ، أول من علمنى كلمة الفن »

لقد كانت له قصة مشهورة مع تلك العالمة ، روى أطرافا منها فى أجزاء مختارة من مؤلفاته ، فكتب فى سجن العمر يقول :

— لقد أصيبت جدتى بالفالج ، ونصح لها الطبيب بصفاء البال والسرور فأحضروا لها الأسطى حميدة بتختها كصديقة للأسرة منذ أحيت حفل زفاف عمى على فكانت تنزل علينا ضيفة مكرمة معززة ، وما كانت تضن علينا بأغانيها وتقاسيم عودها .

كان صوتها يشجينى ، وحفظت الكثير من أغانيها ، واشتد اعجابى بها الى حد خيل الى أنها جميلة ، وشعرت نحوها باحساس يكاد يشبه الحب ، وكانت تشجعنى على الغناء معها ، قائلة لى أن لدى قدرة على تأدية النغمات ، كلما أتلقاها منها .

وفى ذات يوم عدت من مدرستى ـ محمد على الابتدائية فى سنتى الأولى ـ فوجدتها فى البيت وهى تضرب على عودها . كانت وقتئذ بمفردها فى البيت فرجوتها أن تعلمنى العود ، فشرعت تعلمنى بالفعل مطلع « بشرف » وبعد قليل استطاعت يدى أن تخرج من الأوتار نغما منسقا لمطلع « البشرف » . ودخلت علينا والدتى وهى تحسب العود فى يد العوادة . فلما أبصرتنى محتضنا العود ، والأنغام تخرج منه منسجمة ، أطلقت فى البيت صرخة راعدة ، وهجمت على تنتزع العود منى ، وتصيح :

— لو عرف أبوك يذبحك . وجعلت تقول لى ، أنى لن أفلح فى المدارس إذا أمسكت بالعود مرة أخرى ، وسيكون مصيرى أن أطلع « مغنواتى » .

وأرغمتنى على القسم باسم جدها سيدى البسطامى ـ الذى ليس بعد الحلف به من يمين ـ أن لا ألمس العود بيدى طول حياتى . وأقسمت وبررت بالقسم ؛ على أن ذلك لم يمنعنى من حفظ الألحان والأغانى حتى الصعب من الأدوار القديمة ، التى كانت تؤديها الأسطى حميدة ذاتها بمشقة كأدوار عبده الحامولى .

كما روى الكثير من ذكرياته معها فى رواية « عودة الروح » التى سمى نفسه فيها باسم « محسن » وسماها باسم « الأسطى لبيبة شخلع » وكيف أصبح عضوا فى هيئة التخت ، وهو فى السادسة ، فكتب يقول :

— كان ما يملأ نفس محسن فرحا وزهوا ، أن يعتبر عضوا فى هيئة التخت ، فما كمان يرضى إلا أن يغنى ويأكل ويجلس وينحشر بين « العوالم » ويا ويل من كان لايدعوه ويناديه فردا من أفراد الجوق .

كم من مرة بكى وثار لأن أحدا نسى أن يعتبره « سنيدا » كحفيظة ونجية وسلم العمياء . وكم من مرة غضب وهاج كى يعلمنه « السيم » المصطلح بينهن معشر العوالم .

وذهب فى الاندماج فى سلك التخت وتقليد أفراده ، حتى فيما هو عندهن مثل أعلى ، وما يشعرن به من إخلاص واحترام نحو مولاتهن الأسطى لبيبة شخلع .

نعم . إنه لن ينسى فرحه ، إذ كان يجلس على الأرض مع الجوق ، وهو محيط بالأسطى ، وهى مرتفعة فى الوسط على كرسى كبير ، حاملة العود بين ذراعيها ،فقد كان عندئذ يرفع عينيه وينظر اليها ، كمن ينظر الى آلهة فوق قاعدة من الرخام ، ثم يلتفت يمينا وشمالا برأسه الصغير الى زميلاته « السنيدات فى شىء من الارتياح الداخلى لايوصف ، ولايمكن أن يكون له

تفسير .

وذات مرة دعيت الأسطى لبيبة شخلع لاحياء فرح ، قيل لها أنه حفل عرس عظيم ، فتعلق بها محسن لتأخذه معها كعضو فى هيئة التخت ، فرفضت والدته ، فانفجر باكيا ، وأخذ يضرب الأرض بقدميه الصغيرتين ، ويصيح :

— خذونى معاكم . أروح معاكم .

لكن الأم صممت على الرفض ، بينما صمم على مرافقة التخت ، وهو يصيح

— أنا مالى هه . لازم أروح . عايز أشوف الفرح . عمرى ماشفت فرح .

وأشفقت عليه الأسطى شخلع وأقنعت والدته بالذهاب معهن الى الفرح .

وكانت سعادته لاتقدر حين وصل مع التخت الى مكان الحفل ، وكيف تمسك بأن يحمل آلة موسيقية كزميلاته السيدات ، فيقول الكاتب :

— نزلت الأسطى شخلع من الحنطور فى جلال وعظمة ، وهى تبهر الأبصار بحليها وصيغتها من غوايشها الذهب لخلاخيلها الرنانة ، لثوبها الحريرى المطرز بالقصب والترتر ، والبادى تحت ملابسها السوداء ، كل هذا يلمع تحت ضوء المصابيح الباهت ، فكأنها كلها قطعة جواهر تضىء وتتحرك .

ولت الأسطى شخلع أطراف إزارها ، والتفت به جيدا ، ثم نظرت خلفها الى « السنيدة » أفراد التخت ، وأمرتهن أن يحملن الآلات بعناية وانتباه ومشت الأسطى تتهادى وفى ذيلها الصغير محسن لابسا بذلة العيد الكبير .

ورأى محسن فى الحال ، أن زميلاته نجية حاملة العود ، وحفيظة الطبلة « الضربكة » وسلم « الرق » فزمجر ودمدم ،وهدد بالبكاء .. وهو أيضا يجب أن يحمل آلة من الآلات ، ألست عضوا فى التخت ؟

وعبثا حاولت شخلع بتوسلاتها وتحايلها أن تسكته ، وأخيرا أمرت بأن يعطى محسن الصاجات ، وقالت له فى لطف :

— شيل انت الصاجات .. آهى حاجة صغيرة على قدك .

ولما رأته العروس ، سألت شخلع :

— اسم الله عليه ابنك ؟

لكن محسن لم يدع لشخلع وقتا للاجابة ، فقال على الفور بصوته الصغير وهو يشير الى الصاجات فى يديه ، وقال :

— لأ .. أنا من التخت .

وأحيت شخلع وفرقتها الحفل ، فرقصت وغنت وأطربت ، وقام محسن الصغير بمهمته فى الغناء مع زميلاته « السنيدة » حتى انتهى الحفل ، وأرادت شخلع الانصراف ، وإذا بها تتذكر فجأة محسن ، فدقت على صدرها فى قلق وخوف :

— يا ندامتى يا حوستى . فين محسن يا أولاد ؟

وبحثت شخلع بعيون قلقة والهة ، حتى وجدته أخيرا ملقى على الأرض تحت الكراسى ، وهو يغط فى نومه ، فأخذته فى الحال بسرعة وقوة بين ذراعيها ، وغطت وجهه بقبلاتها .

ففتح عينيه وما أن رآها وتبينها حتى ذهب عنه النوم فجأة ، وارتجفت أهدابه ، واحمرت وجنتاه ، واضطرب قليلا ، لايدرى لماذا ؟ ثم تخلص بسرعة من أحضانها وجرى .

ويبدو أن محسن الطفل ابن السادسة ، قد أحب شخلع التى كانت عندئذ فى الثلاثين . فان الكاتب يقول :

— إن مر السنوات لن يمحوْ أبدا من ذاكرته تلك اللحظة الحلوة السعيدة التى فتح فيها عينيه ليرى نفسه بين ذراعيها يتلقى قبلاتها .

ولما تزوجت شخلع بعد ذلك ، أحس محسن بكآبة وخيبة أمل ، وشبه سراب يزول ، وشيئا كالقنوط . يحل فى أعماق نفسه ، دون أن يدرك لذلك سببا .

حــواء الرابعــة

« ســنية »

لكن حبه الأول الحقيقى ، بدأ وهو فى نحو الخامسة عشرة ، ذلك الحب الذى سجل وقائعه كاملة فى رواية « عودة الروح » بين الفتى « محسن » وجارته الحسناء « سنية » بنت الدكتور حلمى التى تكبره بعامين أثناء اقامته مع أعمامه فى المنزل رقم ٣٥ شارع سلامة فى حى البغالة بالسيدة زينب .

كان محسن طالب الكفاءة ، يتردد على سنية بصحبة عمته « زنوبة » . كانت تعزف على البيانو ، وهو يغنى لها أدوار عبده الحامولى ، لقد أحبها فى صمت واحتفظ لديه سرا بمنديلها الحريرى ، الذى طيره الهواء فوق سطح البيت .

كان يحمله دائما ، كما يحمل أهل السنة المصحف الشريف ، ويحلو له الانزواء فى مكان قصى ليخلو الى نفسه ، وليلثم هذا المنديل العزيز ، ويلوح به كثيرا ، ويحادثه طويلا .

ويذكر كيف طلب منه مدرس الانشاء فى اليوم التالى من اللقاء أن يكتب موضوعا انشائيا . فلم يجد غير موضوع الحب ، فاستقبل هذا الموضوع من المدرس وتلاميذ الفصل بالهياج والاستنكار .

وفى يوم سفره الى دمنهور لتمضية الاجازة الصيفية جاء العاشق الصغير لوداعها ، فقدم اليها منديلها الحريرى ، فأعادته اليه ليحتفظ به كتذكار ، وفى هذا اليوم انحدرت دمعتان من عينيه ، فأجلسته بجانبها ، ودموعه تنهمر فالتصقت به ، وقبلته فى أسفل خده قبلة أحس مع حرارتها رطوبة كالندى فنظر اليها فاذا هى أيضا تبكى من التأثر .

كانت فتاة سمراء ، تمتاز بسحر الفتاة المصرية ، ذات العيون السوداء والأهداب الطويلة . انها تحتفظ بنظراتها وتحفظها بين أهدابها المرخاة ، كما يحفظ السيف فى الغمد .

لقد عاش محسن قصة حب مع سنية ، مليئة بالهناء تارة والشك واللوعة والقلق تارة أخرى ، كان يشك فى حبها الى اثنين من أعمامه . ثم كانت الصدمة الهائلة عندما اكتشف حقيقة ، أنها أحبت جارها الشاب الغنى مصطفى .

لكن هذا الحب ألهمه الشعر والأدب ، فكتب لها مجموعة من الرسائل والأشعار ، قدمها اليها يوم الوداع الأخير ، وياله من يوم رهيب ، سفح فيه بين يديها الدموع الغزيرة وهى غير عابئة به ، لأنها كانت قد شغلت عنه بفتى الأحلام .

لقد جعل سنية فى رواية « عودة الروح » على مثال « إيزيس » فى الأسطورة الفرعونية القديمة التى جمعت أشلاء زوجها « أوزيريس » المبعثرة فى كل مكان .

فقد أحبها الشعب ممثلا فى أسرة الصبى محسن وأعمامه الثلاثة حنفى وسليم وعبده ، وخادمهم مبروك ، جيرانها فى السكن فى حى السيدة زينب .

لكن سنية أحبت مصطفى الشاب الغنى الوارث ، فى الوقت الذى قامت فيه ثورة ١٩١٩ ، فينسى الشعب حبه لسنيةً ، ويتحول هذا الحب الى شعلة متقدة من الوطنية ، تؤلف بين قلوبهم جميعا فى حب مصر .

« الحب الجنسى »

أما الحب الجنسي ، فقد عرفه بعد الحصول على الكفاءة ، فكتب فى « سجن العمر » يقول :

— منذ ذلك الوقت وقد يممنا بوجوهنا شطر « البكالوريا » أخذت تبدو علينا أمارات الجد والاحساس بالمسئولية ، والميل الى كل ما يشعرنا برجولتنا . ظهر ذلك فى نوع مطالعتنا ، كما ظهر من نوع عواطفنا ، فقد حدث فينا مزيج عجيب متناقض ، فالى جانب إحساسنا بالحب الرفيع ، بدأنا نعرف المرأة كما كان يتاح لأمثالنا مقابلتها وقتئذ ، فى تلك الأماكن المظلمة فى حى « وجه البركة » و « كلوت بك » كلما استطعنا تدبير عشرة قروش فى ليلة الجمعة .

وقد حدث ذات مرة أن جاءتنا خادمة شابة أرملة ، لاحظت أنها تحاول الاختلاء بى وإغرائى ، وكدت أضعف وأهم بها ، لولا أنى جعلت أفكر فى الأمر ومغبته ، وما يمكن أن يترتب عليه من فضيحة فى الأسرة ، فتمالكت نفسى بسرعة وتماسكت وتغلبت إرادتى على نزوتى .

ولما استقر به المقام فى باريس ، وخلع الطربوش الأحمر ، وارتدى قبعة سوداء عريضة الاطار ، وارتطم بأمواج الحياة الأوربية المتحررة من كل القيود ، ظل محسن محتفظا بخياله الشرقى ، الذى يجعله يعيش فى الخيال أكثر مما يعيش فى الواقع .

والتقى بالمرأة الأوربية فى صورة حواء التى أخرجت آدم من الجنة لم يستطع أن يمنع نفسه ، من اقتطاف الثمرة المحرمة ، لكن ذلك العصفور القادم من الشرق ظل يقدس الحب الملائكى ، دون أن يغرق الى أذنيه فى الحب الجنسى .

« فنـدق الغـرام »

وفى أول عهده بباريس ، أراد أن يقطن فى حى مونمارتر حى الفنانين البوهيميين والأوباش وأهل الفجور ، فكتب فى كتاب « رحلة بين عصرين » يقول :

— ونهضت ذات صباح وحزمت أمتعتى وركبت سيارة أجرة ، وقلت للسائق : إلى مونمارتر . وفى مدخلها أبصرت لافتة عليها كلمة « فندق » .. فبادرت أطلب من السائق الوقوف . ودخلت بأمتعتى توا الى الفندق ، فاستقبلنى مديره ومساعده ، فلم أضيع وقتا ، وقلت لهما على الفور : « أريد حجرة بالشهر لأن اقامتى عندكم مستديمة « فضحك الرجلان » ضحكا أثار دهشتى » . ولما بدا لهما أنى لم أفهم ، أشارا الى سلم الفندق فأبصرت رجلا وامرأة يصعدان ، ورجلا وامرأة يهبطان .

ولم يظهر على مع ذلك علامات الفهم ، وعندئذ طلب منى المدير ومساعده أن أقرأ رقعة معلقة بالحائط قرب الباب ، تفيد أن الحجرات فى هذا الفندق تستأجر بالساعة .

عندئذ فقط أدركت أنى وقعت فى فندق مشبوه للمواعيد الغرامية ، لا للاقامة العادية ، فانصرفت خجلا ، وأنا أتعثر فى أمتعتى ، والرجلان يضحكان منى ويسخران ويرددان :

— « بالشهر . يقول بالشهر » ..

وعدت ادراجى الى قواعدى بفندق « فرنسا الشرقى » فى الحى اللاتينى .

« جانيت وزيزيت وانطوانيت »

وفى بداية عهده فى الاقامة فى باريس ، كان يتردد على مقهى « داكور » الذى يقع على ناصية الشارع الذى به جامعة السوربون .

تعرف فى هذا المقهى بصديق مصرى اسمه « الدكتور سعيد » جاء للتمرين العملى على الأبحاث البكتريولوجية فى معهد « باستور » كان كما وصفه شابا فريد الشخصية عجيب الأطوار . وقد نصحه بأن يترك فندقه فى الحى اللاتينى ويقيم معه فى الفندق الذى ينزل فيه ، بعد أن علم أن التى تقوم على خدمته سيدة عجوز .

ويروى بنفسه القصة فى كتاب « رحلة بين عصرين » فيقول :

— ولما سألته عمن يخدمه فى هذا الفندق ، قال : « رجل عجوز »

فصحت بدورى « أعوذ بالله » فابتسم وقال : لا تقاطعنى أنه فعلا رجل ولكنه كنز من الكنوز ؛ وروى لى حكايته مع هذا الرجل ، قال : انه نزل هذا الفندق ليلا ، وفى الصباح استيقظ ودق الجرس طالبا الفطور ، وهو يمنى النفس بخادمة حسناء تدخل عليه ، فلما دخل عليه هذا الرجل العجوز بشواربه صاح : « أخص على هذا الصباح الهباب . رجل بشوارب أصطبح بوجهه فى باريس ؟ » وقام من فوره يحزم أمتعته ويترك الفندق ، وفهم الرجل وابتسم وأخبره أن الطابق الأعلى تخدم فيه خادمة حسناء اسمها « جانيت » والطابق الأسفل حسناء أخرى اسمها « زيزيت » فزاده هذا نكدا وقال : « وما الذى أوقعنى فى هذا الطابق الملعون الذى يخدم فيه رجل بشوارب .. » وسأله عن اسمه ، فأجاب « غليوم » فقال له « انقل أمتعتى فى الحال ياغليوم الى فوق أو تحت » فقال الرجل بابتسامة ماكرة : لا داعى الى انتقالك يا سيدى ، أليس عندك زرار مقطوع فى قميصك لأرسل اليك جانيت بالابرة والخيط ، كى تصلحه لك . وهذه البقعة فى سترتك لا بد أن تحدث ان لم تكن قد حدثت

من إثر سقوط ملعقة مرق أو زبدة أو نحو ذلك ولا بد إذن أن أرسل إليك بزيزيت لتنظفها لك . ما رأيك فى كل هذا . فانفرجت أسارير الدكتور سعيد وقال « هذا كلام معقول » ووضع فى كفه خمسة فرنكات ضاعفت من همته ، وقال « ان فى الطابق الآخر حسناء ثالثة اسمها « انطوانيت » سيأتى دورها . وفعلا طلب صديقى وقد ادعى المرض من يدلك له جسمه ، فقال غليوم إن هذا شغل « انطوانيت » وهكذا أصبح غليوم هذا صديقى أكثر من الكنوز .. إلا أن صديقى الطموح لم يكتف بهذا ، بل طمع ذات يوم فى المديرة نفسها ، تلك التى تجلس فى صدر بهو الفندق بزهو وكبرياء . وكانت إمرأة ناضجة مليحة .

ولما انتقلت الى الفندق فضلت طابق غليوم ، وبادرت الى زرار قميصى فخلعته ، ثم ناديت غليوم وأشرت له الى قميصى قائلا : « الزرار انخلع » فقال « لحظة واحدة ياسيدى » وانصرف سعيدا وتركنى أمنى النفس برؤية جانيت أو زيزيت أو انطوانيت . وعاد غليوم فعلا بعد لحظة ، ولكن بمفرده ، وفى يده إبرة وخيط . فصحت به « ما هذا » ؟ فقال متعابطا « ألم تطلب ذلك ؟ » قلت له « بل طلبت جانيت أو زيزيت » فابتسم . لكنه عاد وهرش رأسه الأصلع قائلا : « صديقك قال لك ؟ » فأجبته (طبعا) فعاد الى هرش رأسه بلكاعة وفهمت مراده ، وأسرعت الى محفظتى ، وأخرجت منها خمسة فرنكات وضعتها فى كفه ، فتهلل وجهه ، ودب فيه حماس مفاجىء وقال : شكرا ياسيدى لحظة واحدة وخرج مسرعا ، وجلست أنا على مقعد أنتظر ، وكل أنظارى الى باب الحجرة . وتذكرت المحفظة فى يدى ففتحتها ونظرت فيها ثم أعدتها الى جيبى مغتما ، وقد ذهبت السكرة وجاءت الفكرة ، وجعلت أقول لنفسى : لعنة الله على العجلة واللهفة ، أما كان الأجدر انتظار صديقى سعيد ليتولى هذه الأمور .

« نساء الشانزليزيه »

وتحدث عن سهولة الحصول على المرأة فى باريس ، فكتب فى « سجن العمر » فى مجال الحديث عن شقاوة أخيه الصغير زهير ، فقال :

— هالنى يوما أن هبط على فى باريس واستولى فى غفلتى على البذلة الجديدة الوحيدة التى جعلت أوفر وأدبر ثمنها عاما كاملا ، ولم أكن لبستها بعد ، فضننت بها على نفسى ، فاذا بى أراها عليه . وقد جال بها جولة فى الشانزلزيه وعاد مصطحبا فتاتين ، طالبا منى أنا القيام بمهمة العشاء باعتباره ضيفا على فى باريس . فلما غمزته لضيق ذات اليد ، وهمست له :

— النساء سهل . ولكن عشاءهن صعب .

قال محاولا اقناعى :

— وهل أنا أخطأت إذ فكرت فيك . طبعا واحدة لك ، واختر أنت التى تعجبك منهما ، أما أنا الكل عندى سواء .

ويعلق على ذلك بقوله :

— ومع ذلك فأخى هذا لم يعرف الحب فى حياته ، على كثرة ما عرف من نساء ، أقصد الحب كما كنت أفهمه ويفهمه الخياليون والعاطفيون من أهل الشعر والفن . فكما أنه لم يترنم قط فى حياته ببيت واحد من الشعر ، فانه لم يلتهب قلبه مرة بهذا الذى نسميه نحن « الحب » .

حــواء الخامســة

« ســـوزى »

وفى باريس أحب سوزى ديبون أو « أيمادوران » بائعة تذاكر فى شباك مسرح أوديون التى ألهمته مسرحية « أمام شباك التذاكر » التى كتبها بالفرنسية من فصل واحد عام ١٩٢٦ وترجمها الى العربية أحمد الصاوى محمد عام ١٩٣٥ .

لقد أحبها « محسن » بطل رواية « عصفور من الشرق » وهو نفسه « محسن » بطل « عودة الروح » الذى أحب سنية .

فقد كتب فى « عصفور من الشرق » يقول :

— عندما كان يجلس فى قهوة الأوديون ليراقب من بعيد طيف حبيبته سوزى وهى جالسة فى شباك التذاكر ، كان يتذكر أيضا طيف حبيبته سنية وهو يراقبها من قهوة الحاج شحاته فى حى السيدة زينب .فكتب فى عصفور من الشرق يقول :

— ذكر جلوس عمه اليوزباشى سليم الساعات الطويلة ببابها ، شاخصا الى دار حبيبته سنية آملا فى أن يلمح لون ثوبها الحريرى الأخضر من خلف المشربية . وأدرك محسن لفوره أنه يصنع الآن فى شارع الأوديون عين الذى كان يصنعه سليم فى شارع سلامة منذ سنوات . أهى المصادفة ؟ أم هذا الشىء فى دمه . لا يدرى غير أنه يحس قوة ترغمه على الجلوس قرب مكانها . وأنه يحب هذا القرب لذاته .

ويسترسل قائلا :

— ان خفقة القلب التى كانت تهز كل كيان سليم ، كلما خطف بصره خيال امرأة خلف المشربية ، وذلك الصبر الظويل على القهوة فى انتظار هذا الخيال .. هو كل جمال الحب .

ثم رفع النقاب عن وجهه ، ورأينا أن « محسن » فى « عودة الروح » و « عصفور من الشرق » ليس سوى توفيق الحكيم نفسه . وذلك فى كتاب « زهرة العمر » الذى تضمن مجموعة رسائل كتبها بالفرنسية الى صديقه الفرنسى أندريه الذى أقام فى منزل الأسرة فى ضاحية « كوربفوا » قريبا من باريس . وصادق زوجته جرمين .

استهل تلك الرسائل ، برسالة يتحدث فيها عن هزيمته فى الحب ، ويقول :

— صدقت فراستك . الخيال قد أضاعنى يا أندريه . أنا شخص شقى وليس الشقاء هو البكاء ، وليست السعادة هى الضحك . فأنا أضحك طول النهار لأنى لا أريد أن أموت غارقا فى دموعى . أنا شخص ضائع مهزوم فى كل شىء . وقد كان الحب هو آخر ميدان ، وحرت فيه ، واذا كنت تسمع من فمى أحيانا أناشيد القوة والبطولة ، فاعلم أنى أصنع ذلك تشجيعا لنفسى ، كمن يغنى فى الظلام طردا للفزع .

يخيل الى لحظة أن ذلك الشخص الذى عناه « أبسن » بقوله « الرجل القوى هو الرجل الوحيد » .

لقد كان يخطر لى أحيانا أن الحب هو العمود الفقرى للكون . وأن الله كى يقيم القيامة وينهى الحياة لن يأمر (اسرافيل) بنفخ الصور ـ كما يقولون عندنا ـ بل سيأمر « الموت » ليهوى بفأسه على « الحب » وبموت الحب فى الأرض ينتهى العالم .

أمامى الآن خطاب ممن أحببت ، وأوهمتنى بنعيم دام اسبوعين تكشف لى فيه عن المهزلة ، ولم تترفق فتترك لى حتى ذكرى لتلك الأيام القليلة سليمة جميلة . لقد أرادت أن تسترد كل شىء حتى الأوهام والأحلام ، فجردتنى منها بعبارة واحدة : « أتمنى أنى ما عشت قط هذين الأسبوعين » يا الهى الى هذا الحد ؟ وها هى ذى تغنى اليوم

لرجوع كل ود بينها وبين حبيبها الحقيقى أسمع غناءها من نافذة حجرتى فأضحك .

لقد رسمها فى شخصيتين متناقضتين ، صورها فى الأولى على مثال أساطير « ألف ليلة وليلة » وفى الثانية على مثال الفتيات الباريسيات اللواتى يكون للواحدة منهن أكثر من عشيق .

لقد استطاعت أن تكشف له عن جانب من جوانب الجنة فى كيانه ، وجعلته يعلم بفضلها ما لم يكن يعلم . جنة الأرض ، هى التى أعطته مفاتيحها ، وأذاقته رحيقها ، ووضعت شفتيها الى جوار شفتيه على حافة ذلك الكوب البللورى من الكوثر الأبيض .

وهذه هى مسرحية « أمام شباك التذاكر » .

المنظر أمام شباك تذاكر مسرح الأوديون فى باريس عام ١٩٢٦ .

بطلاها صرافة التذاكر : « هى » جالسة فى الشباك ، وأمامها الزبون العاشق الشاب « هو » .

انه يقف أمامها فى حيرة وخجل ، دون أن ينبس ببنت شفة ، فتسأله « ماذا يريد ؟ » فيقول : « لا شىء يا آنسة . أشكرك » .

اذن لماذا جاء اليها أمام الشباك . لعله يريد محلا . لكنه يقول لها « أؤكد لك يا آنسة أنه ليس عندك محل خال » فتؤكد له : « أن عندها محلات خالية » فيراهنها بمائة فرانك ،ويقدمها اليها ، قائلا : « إنى أقول لك ليس لديك محل » .

وتدهش الفتاة ، فلا شك أن هذا الشاب غير مالك لقواه العقلية . غير أنه يؤكد لها العكس ويقول :

— ليس لديك محل خال ، كل امرأة جميلة ، ليس لديها محل خال فى قلبها . انى أرى جليا أنه لم يبق فى قلبك « « فوتيل » واحد شاغر ، حتى ولا فى أعلى التياترو ، حتى ولا مكان للوقوف فى آخر الصفوف . أليس كذلك حقا ؟

وتؤكد له أنه خسر الرهان ، لأنه يستطيع أن يأتى اليها فى أوقات فراغه حيث يجد له مكانا للوقوف فى آخر الصفوف ليراها ويتحدث اليها كما يشاء .

— اذن فقد خسرت أنا مائة الفرنك . ولم أجىء هنا الا لأخسرها وأذهب كالمغفلين .

— لكنك كسبت الوقوف فى آخر الصفوف .

ويودعها قائلا :

— أريد أن أقول كلمة قبل رحيلى . أن السيارات التى تسير ليلا فى الطرقات دون مصابيح ، لاتعبث بالأمن العام عبث عينى المرأة الجميلتين ، وأنه لما يؤسف له ، ويعد ظلما أن تترك الأعين النجل ، تحدث خسائر فادحة للارواح والجيوب ، دون الحيلولة بينها وبين ضحاياها . انى أقترح أن تتدخل السلطة فى ذلك . قد يبدو ذلك متعذرا ، ولكن أمرا يصدر من ادارة البوليس ، كفيل بحل المسألة .

— أمر من ادارة البوليس ؟

— نعم . أمر يقضى بأن كل امرأة ذات عينين نجلاوتين ملزمة بوضع نظارة سوداء ، وإلا حكم عليها بمخالفة مائة فرنك .

انه لا يقنع بمكان للوقوف ، ويسألها شيئا :

— ماذا ؟

— أريد أن تحبينى بأى ثمن ؟

— لماذا تريد منى أن أحبك ؟

— لأنى وجدت فيك ما أبحث عنه .

— ما هو ؟

— روحك . ذكاؤك . شعرك المقصوص كشعر آلهة مصرية .. كل ما فيه ينبىء بامرأة غير عادية ، ثائرة ، متطلعة ، تسخر من كل شىء ،

ولا تحافظ الا على أصول عقلها السليم أو غير السليم . وهى خليقة بأن تحول أوجاع الحياة وأحزانها ـ أيا كانت ـ الى مسرات وملاه ، فلست من نوع المرأة الخطرة . لكن المرحة الفكهة . هذه هى صورتك .

وفى النهاية يقدم اليها عنوانه لتكتب اليه فلا تعده بشىء ، فيقول :

— هذه كبرياء موروثة فى المرأة ، ولا محل لها . ولكنها كبرياء مؤقتة ومادامت امرأة غير عادية ، فلا تلبث كبرياؤك أن تنتهى سريعا ، ويجىء يوم يدفعك حب استطلاعك الى الكتابة الى .

— حسنا .. انتظر اذن ظهور المشمش

— سأنتظر هذا المساء فى منتصف الساعة السابعة بمطعم (الأب بولس) الى الملتقى أيتها الآنسة .

وعندما ينصرف نراها تسأل عن عنوان مطعم الأب بولس .

وهذه قصة غرامْ محسن وسوزى فى « عصفور من الشرق » .

كان يقيم فى ضاحية « كوربفوا » لدى أسرة صديقى الفرنسى أندريه ، فقام بمهمة البوليس السرى ، وأخذ يتابع خطاها كلما انتهت من عملها فى المساء ، الى أنا عرف أنها تقيم فى فندق اسمه « زهرة الاكاسيا » فنقل متاعه . فى الصباح الى الفندق .

ويروى القصة ، فيقول :

كان غير متأكد أن فاتنته تقيم فى هذا الفندق . ولم يكن قد عرف اسمها بعد لكنه استأجر غرفة فى الطابق الخامس . واستيقظ فى الصباح على صوت فاتن جميل ، يغنى كأنه طائر جميل هذه الأغنية المشهورة فى أوبرا « كارمن » .

« الحب طفل بوهيمى لا يعرف أبدا قانونا »

أطل من نافذته ، فوجد أنها هى التى تغنى فى أسفل حجرته ، فى « روب دى شامبر » نسائى من الحرير الأبيض تنظم أزهار البنفسج فى

أصص ، على حافة النافذة التى تحت نافذته ، فوثب قلبه ونبض نبضات ، خيل اليه أنها سمعتها ولكنها مضت فى غنائها :

« إذا لم تحبنى فأنا أحبك وإذا أحببتك فالويل لك »

وفى الصباح تفاجأ به يسير بجوارها وهى فى طريقها الى المترو فقد تذكرته من المعطف وهذه القبعة السوداء .. فقال لها محسن :

— نعم أنا هو .

فابتسمت قليلا ، غير أنها قالت :

— هو من .. ؟

فخجل الفتى وارتبك ، ورأت الفتاة خشونة ردها عليه ، فاستدركت :

— ان لم أخطىء الظن فأنت يا سيدى « زبونى » .

— أنى جئت اليك أحجز محلا لمشاهدة رواية هذا المساء

— شباك التذاكر ليس هنا . انه هناك فى المسرح .

— وما يمنع أن يكون فى أى مكان تحلين فيه

وأدركت الفتاة كل شىء من انتقاله الى هذا الفندق من أجلها ، لكنه حتى ذلك الوقت لم يفكر فى سؤالها عن اسمها ، وهل تقيم بمفردها أم لا .

وعاد الى الفندق وعرف أنها تقيم فى الحجرة رقم (٣٨) تحت حجرته التى كانت تحمل رقم (٤٨) ، وعرف من صاحبة الفندق أنها تقيم بمفردها وأن اسمها سوزى ديبون .

وخرج من الفندق وهو يهمس :

— سوزى .

وفى اليوم التالى قدم اليها أغرب هدية ، لم يقدم اليها طاقة زهر أو زجاجة عطر ، وانما قدم اليها ببغاء فى قفص ، بعد أن سهر معه

الليل يلقنه عبارات الحب كما يلقن الأستاذ تلميذه . وفى الصباح أدلى به فى حبل الى نافذتها . فاستيقظت الفتاة ورأت الحبل المدلى ، وأدركت من أين هبط فرفعت عينيها الى الطابق العلوى وإذا الفتى فى نافذته يبتسم لها ، وحياها تحية الصباح ، فسألته :

— لمن هـذا

— لك .

— ما أجمل هذا الببغاء ، ما اسمه

— محسن .

— محسن

وما كادت الفتاة تنطق هذا الاسم حتى صفر الببغاء وصاح :

— أحبك أحبك أحبك .

وعرفت الفتاة أن اسمه محسن كالببغاء .

ونراه فى غرفته ، يفتح عينيه فى الصباح على شبه صوت ملائكى ينادى اسمه ، أتراه آتيا من السماء ولكن النداء تكرر واضحا عذبا ، فوثب الفتى من فراشه وأصغى ، ثم ابتسم ، انه آت من النافذة السفلى . عجبا ، انها سوزى ، تقول فى نغمة موسيقية :

— محسن . محسن .

فأسرع الفتى الى النافذة كالمجنون .

— أتناديننى

فرفعت الفتاة أهدابها الجميلة ، فى شىء من الدهشة . ورأى يدها على قفص الببغاء ، تقدم اليه حب القرطم . فأدرك كل شىء . فتخاذل وارتبك .

— معذرة . لقد نسيت أنى أشترك مع ببغائك فى عين الاسم .

ورآها تبتسم ، ورأى جمالها فى ذلك الصباح الباكر أنضر من زهر

النرسيس فى أصص نافذتها ، فتشجع وقال :

— نعم . انى أشترك مع هذا الببغاء فى الاسم ، ولكن لا أشترك معه فى الحظ ان الفرق بيننا عظيم .. انه هو الذى يحظى بعنايتك ، فتنادينه وتناجينه ، هذا الأحمق الذى لا يشعر بمقدار ما يناله من سعادة .

آه لأولئك الاشتراكيين الذين يطلبون المساواة بين الناس فى الحظ والنصيب وأنا لا أستطيع أن أطمع فى مساواتى فى الحظ والنصيب بهذا الببغاء .

فضحكت الفتاة وقالت :

— أتراه مطمعا عسيرا .

— أن أكون مثل هذا الببغاء لست أطلب شيئا إلا أن أكون مثله بالضبط .

— ولكنك لست فى قفص

— آه يا سيدتى . انى فى قفص لايراه الناس .

وأدركت الفتاة بأنه يستحق شيئا من العطف ، الذى تمنحه للطيور السجينة فى الأقفاص . فسألته :

— وما نوع العطف الذى تريده منى . انى بالطبع لا أستطيع أن أقدم اليك قليلا من القرطم .

— انك تستطيعين أن تتناولى معى قليلا من القرطم هذا المساء فى أى مطعم يروقك .

وامتزج الحلم بالواقع حين جاءت الفتاة فى الموعد فى مطعم بوكاردى .فتناولا العشاء ثم خرجا الى الجراند بوليفار وشربا القهوة باللبن . ودقت الساعة العاشرة ، فنهضت سوزى طالبة العودة الى

مسكنها . وعندذاك فقط أفاق الفتى وثاب الى رشده ، وأحس فجأة الجوع ، فهو لم يأكل شيئا فى المطعم ، هو الذى كان قد دخله جائعا ، فخرج منه جائعا دون أن يشعر . وهل كان فى مقدوره وهو الى جانبها أن يفكر فى أكل أو شراب ان المعدة لتنام عندما تستيقظ الروح . انه لا يذكر شيئا من أمره لكنه يذكر كل شىء عنها ، يذكر حركة يديها الرشيقتين وهى تتناول « الأوردفارييه » ويذكر جمال فمها وهو يشرب « البورجونى » ويسمع صدى ضحكاتها الرقيقة الخافتة ، عندما كانت تراه يذهل عن الطعام بالرنو اليها ، أو الكلام الطويل فى أشياء لم يذكر ما هى .

ثم حدث تطور سريع فى قصة غرام محسن وسوزى فقد بدأت تتردد على حجرته فى المساء والصباح بثياب العمل ، لانها كانت تصعد اليه قبل أن تذهب الى حجرتها ، وتأتى اليه فى الصباح ، وهى فى طريقها الى العمل . وأن يسمعها تقول له « بونسوار » و « أورفوار » .

شاهدت حجرته المكدسة بالكتب ، فقالت له :

— ما كل هذه الكتب . انك تقرأ كثيرا . أتلذ بهذا المقدار الحياة فى ...

— وأنت

— انى أفضل الحياة فى .. الحياة .

— أنت أيضا

— لماذا تنظر الى هكذا

— أصبت . أرى الآن انى على خطأ . ما الذى يعنينى من أمر حياتك أنت . ما أنت إلا حلم . يحيا فيه الاخرون .

وقدم اليها من يستطيع أن يتكلم باسمه كتاب الشاعر الاغريقى

أناكريون .. وقرأ معا فى صفحة واحدة ، فأحس أن شعرها المعطر قد انتشرت خصلاته الذهبية على وجهه كما تنتشر أشعة القمر على الكائنات . ولم يفطن إلا الى وجه سوزى الناعم الحار قد لامس وجهه وكأنها تقبله ، نعم إنها بين ذراعيه تقبله .

وتحول الخيال الى حقيقة ، والحقيقة عملة لا تجوز فى مملكة الأحلام .

وأضحى يستيقظ فى الصباح على قبلاتها ، ويمضيان أيامهما معا يتناولان الغداء فى مطعم الأوديون، ثم يذهبان الى السينما ، ويجلسان متلاصقين يتبادلان القبلات فى الظلام . وإذا شربا فكلاهما يشرب من موضع الكأس الذى شرب منه آخر .

وفى النهاية حدث ما لم يكن فى الحسبان وتحول هناء محسن الى تعاسة ، كانا يجلسان فى المطعم يتناولان الغداء فى سعادة ، وفجأة دخل شاب جميل الطلعة ، وهو المجنون الآخر هنرى رئيسها فى العمل . فتغيرت ملامح وجهها وانزوت عن محسن الى تصفح مجلة ، وعاملته باهمال فى حضرة هذا الحبيب أو الخليل ، فشعر محسن بالغيرة ، وثار لكرامته الجريحة ، ودفع الحساب ، وتركها قائلا : وداعا يا سيدتى .

ومشى على عجل دون أن ينظر اليها ، وخرج من المطعم خروج آدم من الجنة .

وبدأت بعد ذلك آلام محسن ، فلم تعد نافذته تشرف على ذلك الهناء ، انه مازال يسمع فى الصباح هذه الأغنية من « كارمن » .

« الحب طفل بوهيمى لايعرف أبدا قانونا »

ويشعر بأنه يلقى الآن جزاء اللعب مع ذلك الطفل البوهيمى ، وآلمه أكثر أنه افتقد الببغاء ، ولم يعد يسمعها تناديه .

سمع غناءها ذات عصر فطرق الباب ففتحت ، وما إن رأته حتى عادت فأغلقت الباب فى وجهه فى هدوء بغير أن تلفظ كلمة .

لقد طردته ، ولم تمنحه الفرصة ليتحدث اليها خمس دقائق . وهدأ من ثورته أن تلك المرأة استطاعت أن تكشف له عن جانب من جوانب الجنة فى كيانه . فهو الآن يعلم بفضلها ما لم يعلم . « جنة الأرض » هى التى أعطته مفاتيحها وأذاقته رحيقها ووضعت شفتيها الى جوار شفتيه على حافة ذلك الكوب البللورى ، من الكوثر الأرضى .

وفى الفصل السادس عشر ، سطر اليها رسالة حدثها فيها عما تجيش به نفسه روى فيها قصة الملكة الجميلة « سميراميس » التى أمضت ليلة سعيدة مع أسيرها . ولما لاح الصباح تغير وجه الملكة الجميل ، ووضع الأسير فى الأغلال ومشى به الى الموت وهو ذاهل مازالت فى رأسه بقية من نشوة الليل . أن الذى كان يلطف من غير شك ، وقع الأمر على ذلك الأسير ، أنه كان يعلم أن الملكة تلهو .

وقصة الاله الهندى « ماهادوفا » الذى أحب فتاة جميلة من البشر ، كانت راقصة من راقصات المعابد ، رقصت له ألف رقصة ورقصة ، ثم ركعت أمامه وقدمت له أزهارا ، وعاشت فى سعادة الأرض ، وذات صباح استيقظت الفتاة فوجدت حبيبها ميتا فبكته بكاء مرا ، ولما أحرقوه كما يفعل الهنود بموتاهم ، ألقت بنفسها الى جانبه فى اللهيب ، فأصعدها الى السماء ، تلك قصة الفتاة الهندية ، أما الفتاة الأوربية اليوم ، فانها تفعل غير ذلك ، انها أعقل من أن تلقى بنفسها من أجل الذى تحب ، أو من لا تحب ، فهى تعرف كيف تجعله هو اللهب .

وحدثته نفسه أحيانا بالثورة ، وود لو تنقلب كل ذرة من ذرات حبه الى قنابل تتساقط محطمة ذلك الشىء الجميل ، الذى كان

يسميه « سوزى »

ولكن رباعية من رباعيات الخيام ، وقعت فجأة تحت بصره ، وهو يقلب الكتاب بين يديه لاهيا حالما :

« إذا أردت أن تسلك طريق السلام الدائم فابتسم للقدر إذا بطش بك ولا تبطش بأحد » . .

الفصل الثالث

الهروب من الجنة

* جرمين زوجة صديقه الفرنسى اندريه تشكوه إلى زوجها لأنه لا يغازلها .
* هارون الرشيد وراقصة المعبد فى باريس .
* هل أحب « ريم » بطلة « يوميات نائب فى الأرياف » عندما كان وكيل نيابة .
* عنان بطلة « الخروج من الجنة » التى احبها فى الخيال .

* * *

حـواء السادسة

« جرمين »

لكن هل تراه قد أحب جرمين زوجة صديقه « اندريه » بعد أن قام الزوج بعيدا عنها بجوار عمله فى مصانع « ليل » فقد كان يخرج للنزهة معها ويترددان على المسارح ودور السينما .

كتب اليه فى احدى رسائله يقول :

— سأرى جرمين مساء الجمعة القادم ، كى نذهب معا لمشاهدة رواية جديدة فى مسرح الحى ، وأرجو منك أن تدع جرمين تفهم أن صلتى بها لاتستمد صداقتها من صداقتك ، انما هى صداقة أخرى مستقلة ، تقوم على احترامى لشخصها وتقديرى لذكائها ، فأنا لا أحب لجرمين أن تفهم انى موفد من قبلك . حين نخرج للنزهة بين آن وآن ، ولا انى أتكلف هذا ، قضاء لواجب من الواجبات ، على انى قد ضحكت كثيرا ، وأنت تخبرنى فى خطابك انها لن تنسى ذلك التفانى منى فى خدمتها وانها لا تشكو الا أمرا واحدا ، هو انى لم احاول قط مغازلتها .

يا لظرف الباريسيات . لو كانت تظن أنى ـ وأنا الشرقى ـ أجرؤ على ذلك فى غيبتك ، أفهمها انى سأحاول ذلك مرة فى حضرتك ، لتعلم أنى لست ممن يستهين بجمالها ، ومع ذلك فهى لا تجهل أى سرور أجنيه ، وفائدة لا تقدر أن يتاح لى لقاؤها من حين الى حين ، فإنك لن تتصور مقدار ما يحدثه جلوسى اليها من نتائج فكرية .

حواء السابعة

« ساشا »

لم يكد يبرأ من قصة حبه الى عاملة شباك التذاكر سوزى ديبون حتى وقع فى غرام جديد ، يحدثنا عنه ، فيقول :

— كنت أجلس مع صديقى مسيو هاب فى مشرب صغير فى « مونمارتر » حين دخلت المشرب غادة ذات جسم ، ذكرنى بتمثال « أفروديت » وكان فى صحبتها شاب برونزى اللون جميل الطلعة كأنه « أبو للون » .

وكل ما أذكر انى تمايلت على مسيو هاب صائحا :

— ناد الجرسون واطلب سكينا .

فقال داهشا :

— سكينا ؟ تقطع بها ماذا ؟

فقلت :

— أقتل نفسى عند أقدام هذه المرأةحبا وجنونا وغراما .

فالتفت هاب إلى المرأة ثم إلى صاحبها وقال لى :

— صدقت . ولكنها كما ترى ذات رفيق وأى رفيق . لا أمل لك أيها الصديق . اذا اصررت على السكين ، فانى أنادى لك الجرسون .

ولبثنا ساعة ننظر اليها ونتحسر .

ومضت الأيام . واذا بى أعلم من مسيو هاب أن الفتاة تحاول الانتحار لأن صديقها الأسبانى قد تركها . وعاد الى بلاده ، وهى فتاة أجنبية ، المانية أو روسية ليس لها أحد فى باريس .

فصاح فيها مسيو هاب :

— تموتين ؟ مهلا ياسيدتى ؟ تموتين وعندى شخص يموت فيك حبا وهياما وغراما .

وانتقلت أفروديت بعد ذلك الى غرفة الكاتب فى شارع بلبور . ولم يكن لها أى متاع ، فارتدت بيجامته ، ويروى كيف رآها فى البيجاما ، فيقول :

— تشاغلت بالنظر فى أحد الكتب ، ولما طلعت على فجأة بالبيجاما ، يكاد نهداها البارزان يفتقان الرداء ، فوقع الكتاب من يدى ، فابتسمت .. ابتسمت أفروديت وكانت ليلة لا تنسى .

وبزغ الصبح ، وفتحت عينى وقد راحت السكرة وجاءت الفكرة . ونظرت الى تلك المرأة النائمة فى فراشى ، وقلت لنفسى :

— ماذا أنا صانع بها ؟ اليوم الأحد ، وهو يوم زيارتى المعتادة لمتحف اللوفر . هل أصحبها ؟ إنها لن تطيق المكث فى هذا المتحف ست أو سبع ساعات ، كما أفعل .

وأدركت انها ستفسد على نظام تفكيرى ، وتغير برنامج حياتى . إنى الآن آكل واعمل وقتما أريد وحينما أريد . إن حياتى غير المقيدة بمكان ولا بزمان ولا بانسان ، ستصبح من اليوم داخل اطار محدود من صنع هذه المرأة . إنها عبء وتبعة ، انى لم أخلق لأسير فى الحياة وامرأة معلقة بذراعى .

ونهضت من فراشى على عجل ، وارتديت ثيابى ، وكتبت كلمة تركتها لها فوق المكتب خلاصتها :

— « إنى رجل بوهيمى ، لا يصلح لرعايتك ، والسهر على راحتك فأرجو أن تخلينى من تبعة اسعادك ، فأنا لست لهذه النعمة بأهل » .

وذهبت توا الى مسيو هاب وأخبرته بما حدث ، فكاد يصعق ، فهدأت من روعه وضاحكته قائلا :

لا تنس انى رجل شرقى «حش .. المرأة عندى يجب أن تبقى فى

الحريم أو على الأقل لا يكون لها دخل كبير فى حياتى ، اذا ارادت ساشا أن تتخذ من مسكنى مأوى لها ، فلا مانع عندى ، على شرط أن تتركنى حرا ، فلا تخرج معى ، ولا تشعرنى بأن لها فى حياتى وجودا .

قبلت شروطى ، وعادت تقيم معى على هذا الوضع ، وقصت على قصة نشأتها وعلمت أن ساشا شوارتز ابنة مدير احدى شركات السكك الحديدية فى المانيا فلما انهارت الشركة بعد الحرب بانهيار المارك والنظام الاقتصادى الالمانى ، انهارت اسرتها أيضا ، فمات أبوها وتشرد أخوتها وأخواتها فى أرجاء أوربا . ونزحت هى الى فرنسا .

وأدركت فى النهاية انه لم يكن حب قط ولا أذكر اننا تبادلنا كلمة واحدة فيها حرارة العاطفة الملتهبة . هذا شىء لايمكن أن يحدث مع امرأة موجودة أمامى فى كل وقت . ان اللحظة الوحيدة التى احببتها فيها حقا ، هى ساعة دخولها المشرب أول مرة مع صديقها الأسبانى .

انها كانت رائعة ، لأنها كانت شيئا فى السماء ، مثل كوكب يتلألأ ، لايمكن أن تمتد اليه يدى ، ولكن هذا الكوكب ما لبث أن وقع فى كفى ، فاذا هو مصباح ضئيل ، يحتاج الى يدى القاصرة لتملأه بالزيت ، وتحميه من التحطيم والسقوط .

وعملت ساشا بعد ذلك راقصة باليه ، وما من شك أن جسمها يعد خير نموذج لجسم المرأة الجميل .. وسافرت مع الفرقة فى رحلة الى جنوب فرنسا .

وودع احدنا الآخر وداعا حارا ، وشعرت فى تلك اللحظة بشىء من السعادة لعودة حريتى الكاملة الى ، ووحدتى المطلقة .

— إنى لم أزل أحب « ايما » ـ يقصد سوزى ديبون ـ لأنها شىء بعيد غير موجود فى كل وقت يصل الى غناؤها من نافذتها ، كأنه شعاع يأتينى من بعيد .. انها اعطتنى بعض اسرار نفسها وجسمها ، ولكنها

مع ذلك ليست فى يدى شأنها شأن الطبيعة التى تعطينا وتستعصى علينا . إن الحب قصة يجب ألا تنتهى ، قصة « ايما » مستمرة ، لا تريد أن تنتهى . ان الحب مسألة رياضية لم تحل . ان جوهر الحب مثل جوهر الوجود ، لابد أن يكون فيه ذلك الذى يسمونه « المجهول » أو « المطلق » .

إن حمى الحب عندى هى نوع من حمى « المعرفة » واستكشاف المجهول والجرى وراء المطلق .

ماذا يكون حال الوجود لو أن الله قذف فى وجوهنا نحن الآدميين بتلك المعرفة أوذلك المطلق يومئذ ، انها ولاشك لو بقيت بعد ذلك لصارت شيئا خاليا من كل جمال وفكر وعاطفة ، فكل مانسميه جمالا وفكرا وشعورا ، ليس إلا قبسات النور التى تخرج أثناء جهادنا وكدنا وجرينا خلف المطلق المجهول .

لو أن « ايما » قبلت أن تترك حجرتها ، كما عرضت عليها ، وتأتى لتقطن معى فى حجرتى ، لكان حظها حظ ساشا .

هنا الفرق بين « الغرام » وبين « الزوجية » .

« الساقية والخادمة »

وكان العصفور الشرقى ، يثير دائما اهتمام الباريسيات ، حتى الساقيات الحسان ، فقد حدث صديقه « أندريه » فى « زهرة العمر » فقال :

— أيام أن كان صديقك الشرقى يتناول الغداء فى المطعم الالزاسى لقد زعم أن « الساقية » الرشيقة ـ خادم المحل ـ كانت تخالسه النظر .

الواقع انها منذ وقع بصرها عليه أول مرة ، وهى لا تفتأ ترمقه كلما مرت به ، حاملة طبق الكرنب المعمر بسجق « فرنكفور » أو « نصف بيره » أو « واحد جبن »

لقد عجبت حقا لأمر هذه الجميلة ، التى سخت على بكل هذا العطف . اذ خصتنى بالتفاتها ، دون أولئك العديدين الذين لا يأتون الى هذا المكان الا من أجلها . أجل ياسيد اندريه . لم تكن أنت وحدك الذى كان يصنع ذلك .

لقد كانت هناك عصبة شبان يظهر أنهم من « النرويج » كانوا يختلفون الى ذلك المطعم لرؤية « القمر » فى نصف النهار .

أما عن فرح « توفيق الحكيم »بهذا العطف الخاص فحدث ولا حرج لقد شمخ وانتفخ وقال لنفسه « لعل ميزة خفية أو ظاهرة فى ، هى التى استلفتت نظر الفتاة ، وأراد يوما أن يبتسم لها ، ولكنه نظر قبل ذلك الى وجهه فى المرآة ، واذا هو فجأة يدرك سر نظرات الجميلة اليه .. يالخيبة الأمل !

وتذكر فى تلك اللحظة أن نظراتها كانت موجهة فى حقيقة الأمر الى رأسه الى ذلك الشعر المنفوش « أرتستيك » ومن تحته ذلك الوجه الغريب ، بعينيه اللتين تشبهان أعين أهل الأساطير الدينية المصورة فى الفسيفساء البيزنطية ، وشفتيه الغليظتين الأفريقيتين ، كأنهما شفتا ساحر زنجى .

عند ذاك تذكر أيضا ماقالته فيه خادم الأسرة ، التى نزل عندها فى حى « فوجيرار » أول عهده بباريس ، لقد دخلت عليه الخادم فى الصباح تحمل صينية الفطور ، فوقع بصرها عليه فى السرير ، لايبدو منه الا رأس يطل من اللحاف الناصع ، كأنه رأس « يوحنا المعمدان »على صينية الفضة . ولكن جاشا لله أن يكون هذا معمدانا صاحب مثل هذا الرأس لايمكن أن يكون من الآدميين . ذلك ولاريب ماجال بخاطر الخادم ، وهى تنظر الى شعرى الذى هب قائما الى فوق مسند السرير فى شكل دائرة ، كأنه هالة من الهباب الأسود ، على حافة الوسادة البيضاء أما الوجه فوق الوسادة ، وتحت الهالة ، فلم تره لحسن الحظ ، ومضت الأيام واذا صاحبة البيت تقول لى ذات يوم باسمة ، وقد زالت بيننا الكلفة .. لقد جائتنى الخادم تقول مرتاعة : « أتدرين ياسيدتى من حل بدارنا ؟ » فسألتها من ؟ فأجابت « انه الشيطان » .

ويتلقى ردا من صديقه اندريه ، يقول له فيه :

— إن الجميلة ساقية المطعم الالزاسى تحمل لك أجمل الذكرى واننى قد دعوتها إلى العشاء وأخشى غضبك .

فيرد عليه قائلا :

— لا ياسيدى إنى لم أغضب . على النقيض ، لقد سرنى ذلك . إنها كانت عندى شيئا جميلا حقا ، شيئا جميلا لم أجرؤ على مسه بأناملى ، حتى لا ينهار أملى فيه ، ليت الأمر اقتصر على الحب ياأندريه .. كل شىء ينهار بلمسة من يدى كأنما أبنى الآمال من الرمال .

حـــواء الثـــامنة

« نتــــالى »

وفى ذكرى رحلته الى مهرجان الموسيقى فى سالزبورج عام ١٩٣٦ التى رواها فى قصة « راقصة المعبد » حدثنا عن قصة حب جديد مع راقصة بولونية كهرمانية العينين ذات ثغر لؤلؤى أثمن من كنوز سليمان ، اسمها « نتالى » كان قد التقى بها فى القطار العائد الى باريس .

وهناك قادها الى مسكنه فى مونبار ناس فى شارع لامبر .

وألقت الجميلة نظرها على المسكن المطل على برج أيفل ، وهو أشبه بالمعبد وقالت :

— إنه ستديو

— نعم . هنا ينبغى أن نعيش .

ورفعت عينيها فى شىء من التردد والحيرة ، إلى حجرة النوم الوحيدة وقالت

— لا .لا . لا أستطيع مع الأسف أن أقبل ضيافتك .

— اطمئنى . هذه الحجرة لك وحدك ، لاشريك لك فيها .

— وأنت ؟

— إنى سأرقد على هذا الفراش . فى هذه القاعة .

— الى الحق أن أغتصب حجرة نومك ، وألقى الفوضى فى نظام حياتك .

— إن الفوضى هى نفسها نظام حياتى . وأنت التى لها الحق ان تغتصب قلبى ، أفلا يكون لها الحق أن تغتصب حجرتى ؟ .

جلست بعباءتى الألاجا الزرقاء ، والبلغة الصفراء فى قدمى ، ووخزت بالابرة صدر الجرامفون ، فانطلقت رقصة « الأزهار » لتشيكوفسكى ،

واذا بالجارية تبدو فى « روب دى شامبر » من الحرير قرمزى اللون موشى بخيوط من ذهب فى لون عينيها ، واذا هى تتمايل لوقع الموسيقى فى لطف ورقة ، فخيل الى انها فراشة جميلة فرت من الجنة أو حديقة علوية لا وجود لها الا فى مملكة الخيال واذا هذا التمايل الخفيف اللطيف كأنه تمايل السنبلة ، أو الزهرة تحت النسيم ، إنما هى شىء لا يقع الا من « عروس الرقص » نفسها ، فوجمت لحظة ، ورجعت اليها مأخوذا .

وما وقعت عيناها على هيئتى بعباءتى حتى اتسعت حدقتاها ، وقالت فى دهشة :

— عجبا كأنى فى حضرة هارون الرشيد .

فأجبتها باسما :

— أتأذنين لهارون الرشيد أن يلثم يدك ؟

فمدت الى يدها فوضعتها على شفتى فى خشوع ، ثم أجلستها على مقعد وثير فى صدر المكان ، وجلست بين يديها على وسادة فوق الأرض جلسة تشبه الركوع ، ورفعت عينى الى هذا التكوين البديع ، ولم أجد ماأقول ولا ما أصنع وهل تقول شيئا أو تصنع شيئا اذ تتأمل آيات « اللوفر » وروائع « السكستين » .

— لماذا تنظر الى هكذا ؟

— لست أدرى ؟

وسددت الى نظرة رائعة بأهداب من حرير :

— هل أنت أحببتنى ؟

فأسرعت كالمرتاع :

— لا تقولى ذلك .

فضحكت لروعى ضحكة رقيقة ، وقالت :

— إنك تخشى الحب كما تخشى الموت ؟

— نعم .

وتناولنا الشراب فى مطعم « الأب لويس » ورفعت الكأس الى شفتيها الرطبتين ، وهى تقول فى صوت كالهمس :

— فى صحة مولاى .

— فى صحة جاريتنا .

وعدنا الى الاستديو ننام ، وانطلقت الى الخارج ، وقبل أن أغادر المكان تركت لها هذه الكلمة :

— سيدتى لم يبق أمامى غير الفرار

وعرف انها أحبت قبله ثلاثة رجال ، أولهم مات منتحرا ، وثالثهم فقد ثروته .

— وثانيهم ؟

— موسيقار .

— آه . أحد أمرين ، اما انه باع « الكمنجة » واما انه شنق نفسه بالأوتار .

فقال له محدثه :

— لا هذا ولاذاك . وضع لها « فالس » يعد من خير ما أنتجته قريحته ويمضى معلقا على ذلك ، فيقول :

— فاطمأنت نفسى قليلا وهدأ ثائرى ، وقلت كالمخاطب لنفسى :

— نعم . ليس للفنان الحق فى أن يموت بالحب أو غيره ، قبل أن يؤدى الاتاوة الى اله الفن .

وكان هذا هدف الجميلة ، عندما عرفت فى القطار « أنه عدو المرأة » فهى تحب الصيد ، كل أنواع الصيد ، صيد الوعول وصيد القلوب .

ولهذا تراهنت على أن تصوب الى قلبه سهما يدميه ويستقر فيه قبل صياح الديك .

وعاد الى المعبد ، فوجد فاتنته قد غادرته وتركت له هذه الكلمات :

— سيدى . وأنا لم يبق لى الا أن أطرح القوس والنشاب وأذهب فنفير السيارة يدعونى بالباب . ونفير الصيد يؤذن بالانتهاء قبل صياح الديك . لقد فرت الفريسة والسهم عالق بقلبها ، وكل بغيتنا الرياضة لا الاحتفاظ بالجلود ، وشكرا على الضيافة .

« نتالى »

وقد شهد الدكتور طه حسين طرفا من قصة حبه الى نتالى ، فهناك رسالة منشورة فى كتاب « وثائق من كواليس الأدباء » أرسلها اليه فى ذلك الوقت من فندق « باسيه أورياچ أيزير » فى فرنسا بتاريخ ٢٥ أغسطس ١٩٣٦ يقول فيها :

— لعل (........) ـ ربما يقصد نتالى ـ أدركتك فى سالزبورج ، فهى قد هبطت علينا ، أو صعدت الينا ذات مساء فى « كمبلو » ثم لم تقم الا ليلة وضحاها . ولما علمت أنها تريد ان تلحق بك فى سالزبورج خذلتها عن ذلك وصرفتها عنك ما استطعت لا اشفاقا عليك ، بل اشفاقا عليها منك ، فأنت رجل متوحش لم تستطع شهرزاد نفسها ، أن تستأنسك . ولكن (......) لم تسمع لى ، فلعل حظها كان خيرا من حظ شهرزاد .

لعلك نعمت بالحياة فى سالزبورج .

لكن الحكيم لم يترك الاشارة بلا تعليق ، فذكر انها إحدى المثقفات من معارفنا .. جاءت الى المصيف لزيارتى وزيارته هو وأسرته أى مدام طه حسين وابنه « كلود » مؤنس وابنته أمينة ، اللذين كانا طفلين فى ذلك الوقت .

حــواء التـاســعة

« ريــم »

أما حواء التاسعة فهى الفتاة الريفية الحسناء « ريم » بطلة رواية « يوميات نائب فى الأرياف » .

لقد مثلت أمام وكيل النيابة كشاهدة فى قضية محاولة قتل زوج شقيقتها المتوفاة قمر الدولة علوان .

كانت ذات جمال رائع جعل أبله القرية الشيخ عصفور ، يتغنى بهذا الجمال وهو يحمل فى يده عودا أخضر كالصولجان ، ويقول :

ورمش عين الحبيبة   يفرش على فـدان

ووصفها وكيل النيابة بقوله :

— غادة فى السادسة عشرة ، لم تر عينى منذ وجودى فى الريف أجمل منها وجها ، ولا أرشق قدا ، وقفت على عتبة الباب فى لباسها الأسود الطويل كأنها دمية من الأبنوس ، طعمت فى موضع الوجه بالعاج .

ويتحدث عن تأثير جمالها عليه هو والآخرين ، فيقول :

— رفعت الى رمشين . ولأول مرة يرتج على فى « التحقيق » فلم أدر كيف أسألها . ولم يرها كاتب التحقيق ، فقد كان موقفها خلف ظهره ، فلما لحظ صمتى ظن بى تعبا ، فغمس القلم فى الدواة ، ورفع رأسه إليها وهو يسألها :

— اسمك ايه يا بنت ؟

فلما أن وقع بصره عليها حتى حملق فيها ، ولم يعد الى الورق ، ونظرت حولى فوجدت مساعدى الناعس قد أفاق ونشط ، وأخذ يرمق الصبية بعينيه الواسعتين .

وزحف الشيخ عصفور حتى بلغ موطىء قدمى ، فاقعى كالكلب ، ينظر الى الفلاحة الحسناء فاغرا فاه . حقا إن للجمال لهيبه . ورأيت أن أملك سريعا ناصية نفسى قبل أن ينكشف الأمر ، فقلت لصاحبة الجمال وأنا أكبح عينى حتى لا أنظر اليها :

— اسمك ؟

— « ريم » .

لفظته فى صوت ، هز نفسى كما تهز الوتر أنامل رقيقة فما شككت فى أن صوتى سيتهدج أن ألقيت عليها سؤالا آخر فتريثت ، وبدت لى دقة الموقف ، وأيقنت ببطء التحقيق ، إذا قدر لى أن أقف كالدائخ بين السؤال والسؤال . فاستجمعت ما بقى عندى من شتات القوة والعزم ، وهجمت بأسئلة لا أنتظر الجواب عنها إلا جملة . وقلت لها :

— تكلمى فى كل هذا .

وأدرك حقيقة أنها مفتاح القضية ، فقد رفض المصاب كل الخطاب الذين تقدموا اليها بصفته ولى أمرها .

وصاح الشيخ عصفور وهو يلوح بصولجانه الأخضر .

— هى بعينها برمشها . عرفتها برمشها . ورمش عينها يفرش على فدان .

يعود الى التحقيق فى جناية قمر الدولة علوان ، الذى كان قد نقل الى المستشفى ولم تسمح حالته باستجوابه ، لكنه أفاق لحظة ، فانتهز وكيل النيابة تلك الفرصة وسأله :

— يا قمر الدولة . من ضربك ؟

فبذل جهدا ظاهرا وقال كلمة واحدة :

— « ريم » .

ثم صمت وذهب فى غيبوبة .

وزاد بتلك الكلمة القضية غموضا .

ويصيح وكيل النيابة قائلا :

— ليته لم يلفظها .

وكان الليل قد أمسى على « ريم » ، ولابد من أن تجد مكانا تبيت فيه ليلتها ليستكمل التحقيق معها فى الصباح . فأبدى المأمور استعداده لكى تبيت فى بيته . وخشى عليها الجميع ، حتى الشيخ عصفور .

وأدرك ذلك المأمور ، وقال :

— أنا غرضى أنها تكون فى محل أمين بين زوجتى وأولادى .

وذهبت الفتاة لتبيت فى بيت المأمور . وعاد وكيل النيابة الى منزله لكنه لم تغمض له عين طول الليل ، بسبب الشعور بالقلق على الفتاة ، وقال :

— وفجأة خطر لى أن أرتدى ثيابى وأن أنزل الى الطريق ، وأدور حول منزل المأمور . ما هذا الجنون ؟ أنا أفعل ذلك ؟ وإذا « ضبطنى » خفير الدرك انه قد يعرف شخصيتى فيعتذر . ولكنه سيخبر الناس ويشيع الخبر ، وتكون الفضيحة .

وفوجىء وكيل النيابة بالمأمور يدخل عليه غاضبا ، ويقول :

— البنت ريم .

فقال فى لهفة :

— ما لها ؟

اختفت . هربت مع الشيخ كلب .

وألقى القبض على الشيخ عصفور وحده وجىء به الى دار النيابة وفى يديه القيد الحديدى . وبسؤاله عن ريم ، قال : انه لا يعلم .

وكان النائب فى حيرة من أمر هذا الرجل ، وماله من تأثير قوى على الفتاة فقال له :

— من أنت ؟

— أنا .. عصفور ألقط الحب فوق التراب ، وأعبد الرب تحت التراب

ثم رفع عقيرته بالغناء :

أنــا كنــت صــــيــاد وصـــيــد الســمـك غيـة
نــزلت بحــر الســـمـك أصـــطــاد لى بنيـــه
وعجبنى شـــكل السـمك فى البحـــر حــواليــه
واحــدة بياض شــفتشــى والثــانيـــة بلطيـــة

فقاطعه المأمور قائلا :

— مفهوم مفهوم . واللى غرقت فى الرياح من سنتين ، كانت بياض والا البلطية فلم يجبه الشيخ عصفور ومضى يغنى :

والتــالتــة مــن بــدعهــا ســحــرت مــراكبيـــة

ويسأل وكيل النيابة الشيخ عصفور :

— « ريم » ياسيدنا الشيخ خلى نفسك ويانا فى مسألة البنت ريم .

فهز الرجل رأسه ولوح بصولجانه الأخضر ، وقال مترنما :

أيش راح ينـــوبـك من الشـــكيـان ويفيـدك

تاييس الجديدة

ولعل حواء العاشرة هى تاييس الجديدة بطلة رواية الرباط المقدس لكنه نفى ذلك وقال انه لم يرها وانما سمع عنها فقط .

بطلها راهب الفكر ـ المؤلف نفسه ـ وبطلتها زوجة عصرية ، أطلق عليها اسم « تاييس » بطلة رواية أناتول فرانس المعروفة بهذا الاسم ، التى تحكى قصة الراهب « بافنوس » الذى خرج من صومعته فى قلب الصحراء ، وجاء الى الاسكندرية ليهدى غانيتها « تاييس » فاهتدت بعد أن أضلته عن الايمان .

وقد رسم شخصيته بقلمه فى استهلال الفصل الأول ، فقال :

ـــ كان فى عباءته وقلنسوته ـ يشبه حقا الراهب ـ هكذا كان رداؤه فى بيته ، ولعل هذا المظهر كان يتفق مع لون حياته ، تلك الحياة الهادئة بين الكتب والورق الراقدة كمداد المحبرة . ما كان لديه قط شىء يرى ، حتى ولا أيامه ، فهى لتشابهها تبدو وكأنها واقفة لا تسير ، أوأنها تجمعت كلها .. واندمجت فصارت يوما واحدا لا يزول . ومع ذلك فقد كان هنالك سيل متدفق يجرى منه بغير انقطاع ، ذلك هو فكره .

كان يقرأ جريدة الصباح ، فوقعت بين يديه رسالة استرعت التفاته ، عن فتاة تقول إنها فى الثانية والعشرين تريد الأشتغال بالأدب ، وتطلب مقابلته ، دون أن تذكر اسمها أو عنوانها ، لأنها ستخاطبه بالتليفون لتعلم منه الموعد الذى قد يضربه للقاء .

وعند اللقاء وجد أمامه فتاة جميلة رشيقة ، من ذلك الطراز الذى يخطر فى حلبات السباق فى أحدث الأزياء ، ناثرا فى الهواء أحدث العطور تاركا خلفه فى كل خطوة آلاف النظرات والحسرات والتنهدات .

فخلبت الفتاة لبه ، كما خلبت تاييس لب الراهب بافنوس . لقد أراد

بافنوس أن يهدى تاييس الى حظيرة الايمان . بينما أراد هو أن يهديها الى حظيرة الأدب .

رفضت أن تذكر له اسمها أو اسم أسرتها ، واكتفت بأن تخبره بأن لها خطيبا تحبه ، مفتونا بالأدب والفكر ، وأنها جاءت اليه كى يجعلها تحب الأدب لكى تستطيع أن تتحدث مع خطيبها فى شئون الفكر .

فأهدى اليها الراهب رواية « تاييس » واذا بها تعيدها اليه فيما بعد ، بدعوى أنها لم تستطع أن تقرأ منها سوى بضع صفحات . وكانت ترتدى لباس « التنس » فدعته لمشاهدتها أثناء اللعب . فسألها : لماذا ؟ قالت لأن الراهب بافنوس هو الذى جاء الى تاييس ، دون أن تذهب اليه .

ويفاجأ بعد ذلك بزيارة شاب غريب يعرف أنه زوج الفتاة وليس خطيبها . جاء ليشكره لأن كتبه حببت الى زوجته القراءة ، دون أن يعرف شيئا عن علاقتها بالراهب الذى أخفى عنه أيضا ذلك . وفاجأه الزوج بأن زوجته قرأت رواية تاييس فى ثلاث ليال ، وأنها عكفت على قراءة كتبه كلها .

ولهذا عندما زارته بعد ذلك رماها بالكذب ، وشعرت بأنه لم يعد مستعدا لزيارتها له ، فقالت : « وداعا » وتناولت قفازها ، وجعلت تضع أصابعها فيه على مهل ، ثم قالت : « أشكرك » .

ومضت الى الباب ، واختفت كما يختفى الشبح ، وذهبت كما يذهب الحلم .

وكانت القطيعة والفراق ، وأدرك الراهب أنه أحبها ، وسهر مع طيفها الليالى فى أحلام وذكريات ، جعلته يناجيها بالرسائل ، التى تكدست لديه دون أن يسمع عنها خبرا على مدى عام كامل .

وفى الفصل العاشر تدخل اصبع القدر . لقد جاء الشتاء وشعر بحاجة الى الدفء تحت شمس حلوان ، ونزل فى فندق « جراند أوتيل » وهناك التقى بزوجها ينزل فى نفس الفندق . فسعد بلقائه لأنها لابد أن تكون

معه . كان معه ابن خاله الضابط جاء الى حلوان للاستشفاء من حالة أرق ، تكاد تدفعه الى الانتحار .

سأله عن زوجته : « أما زالت تقرأ ؟ » فأجاب فى شبه صيحة مكتومة : انها الآن تكتب يا سيدى .

وعرف منه أنها كتبت شيئا يسمى « الاعترافات » ثم أطلعت على تلك الاعترافات بخط يدها فى « كراسة حمراء » وصفت فيها حياتها مع زوجها خلال ثلاث سنوات مليئة بالملل والسأم ، وأنها تشكو من حياة الرجعية والمحافظة على التقاليد فى محيط الأسرة ، وأنها لا تجد من يشجعها على حياة الحرية والانطلاق غير صديقة مسكينة تتناول الأسرة حياتها بالسوء ، ثم روت فى تلك الاعترافات قصة غرامها بممثل سينمائى معروف طالما أمضت الليالى فى فراشه ، وتذوقت معه ما حرمت منه من لذة الحب والقبلات والجنس .

لقد أطلع راهب الفكر على تلك الاعترافات ليستنير برأيه ، فيما جاء فيها من خيانتها الصريحة له .

وكان من سوء طالعه أن أطلع ابن خاله أيضا على تلك الكراسة الحمراء التى تحدثت فيها عن تلك الصديقة المتحررة الفكر ، التى لم تكن سوى زوجة الضابط فتطرق اليه الشك هو الآخر فى سلوك زوجته . أما الزوج فكاد يجن . ولم يكن لديه علاج لذلك سوى مطلبين هما الطلاق ، وحضانة طفلتهما حتى لا تنشأ على شاكلة الأم .

وصارح راهب الفكر بشكوكه ، التى تحولت لديه الى يقين راسخ ، بينما حاولت الزوجة أن تدفع عنها الاتهام ، بأن الكراسة الحمراء لا تتضمن اعترافا فما هى إلا قصص خيالية .

لكن الزوج يتمسك بموقفه ويقع الطلاق .

« تاييس الراهب بافنوس »

وتعود تاييس المطلقة إلى راهب الفكر وتحاول اغراؤه حتى يكاد يستسلم لهذا الاغراء ، ويقع معها فى الاثم ، لولا أنه تلقى محادثة تليفونية من الزوج ينبئه فيها بوفاة ابن خاله الضابط منتحرا ، فيفيق لنفسه ، ويفكر فى وسيلة للخلاص ، بالهروب إلى الريف طلبا للنسيان .

وتنتهى الرواية بنفس البداية ، فنرى الراهب بعد عودته من الريف ، يجلس فى مكتبه فى الصباح باسم الثغر ، هادىء الأعصاب وإذا برسالة أخرى تقع فى يده من امرأة تسأله أن يحدد لها موعدا للقاء ، لأنها تريد أن تحادثه فى شأن من شئون الأدب والفكر ، فصاح فى نفسه :

— لا . لا . كفى . ألم يعرفهن ؟

وكاد يمزق الرسالة . ولكنه ثاب الى رشده ، قائلا :

— الشجاعة ليست فى تجنب مزالق الجسد ، وتحاشى مواطن الزلل ، بل فى مواجهتها بمصباح الحقائق ونور المثل العليا .

« الكراسة الحمراء »

وتتضمن « الكراسة الحمراء » وصفا لحياة الملل فى الحياة الزوجية بين زوجة عصرية متحررة التفكير وزوج رجعى جاد ، فى أسرة محافظة الى حد التزمت .

وقد بدأ الملل يتطرق الى حياتها بعد مضى ثلاث سنوات من الزواج ، بالرغم من أنها أصبحت أما لطفلة صغيرة .

كان الزوج قد سافر خارج القاهرة فى عمل يقتضى منه الغياب بضعة أسابيع بعد أن ظل ملازما لها عاما كاملا ، دون أن يتركها يوما واحدا ، مما جعلها تسأم الحياة معه ، وتريد أن تتذوق سحر الحياة .

كانت تعشق النجم السينمائى « ..... » بطل الفيلم الجديد « هنا الغرام » الذى كان نجمها المعبود ، كما تحدثت عنه فى « الكراسة الحمراء » وقال :

— ذهبنا فى المساء الى سينما « ..... » ورأيت هذا الشاب على الشاشة خيالا نابضا ، وأصغيت الى صوته يتدفق حرارة ، خيل الى أنها تنساب فى مفاصلى وتشيع فى نفسى وتصعد الى رأسى فتكاد تفقدنى صوابى . ترى أهو فى الحياة كما هو فى الرواية ؟ أتراه فى الواقع يحادث من يحب من النساء بمثل هذا الحديث العذب ، وهذه العاطفة الملتهبة التى يحادث بها هذه الممثلة التى تشاركه التمثيل ؟ أتراه حقا يستطيع أن يحب هكذا ؟ كما يتطلب دوره فى الفيلم أن يحب ؟ أتراه ينتصر دائما هكذا فى ميدان الحقيقة ويفوز بأمتع النساء وأصعبهن منالا ، كما يستطيع ذلك فى هذه الروايات .

كانت تحلم به وتتمناه ، الى أن تحول الحلم الى حقيقة ، ووجدت نفسها بين أحضانه ، تتلقى قبلاته ، وتتنسم عطر أنفاسه ، فكتبت تقول

— وطوقنى برقة وحرص ، كأنه يطوق شيئا مقدسا . ووضع شفتيه على شفتى وضعا لطيفا خفيفا ، قبلة شبه طاهرة ، قبلة الخطوبة .

لمحت فى ركن الصالون مائدة منصوبة عليها أطباق من اللحم البارد والحلوى والفاكهة وزجاجة الويسكى . وساعدنى فى خلع معطفى ، بينما شفتاه تلمسان يدى وذراعى ونحرى ، لمس النهم .

لقد تجنب فى كياسة تشبه الحياء أن يتعجل أى التصاق بين جسمينا . لكأنى به ذلك الذواقة ، الذى يريد أن يستمرىء الكأس على مهل .

وجعل ذراعه حول خصرى ، واتخذ رأسى من كتفه شبه وسادة .

آه .. اليوم فقط أدركت لماذا تحطم النساء كل قيد يحول بينهن وبين الرجل الذى يكشف لأعينهن العمياء عن ملذات الحب . أين كنت غافلة عن اللذة الكبرى .

انى أحس أنى الآن امرأة جديدة ، الى حد الاعتقاد بأنى لم أكن أكثر من بكر بريئة قبل أن يدخل الممثل « . . . » فى حياتى .

لقد تم كل شىء فى نشوة من الملاطفات والقبلات .. وبعد .. فما أثر ذلك عنده بعد أن وقع هذا الأمر ؟ لقد بدا عليه شىء من الاعتراف بالجميل .

ولقد كانت ذراعه تسندنى الى صدره فى حركة المالك القابض على ملكه ، أما أنا فكنت آوى الى جسمه وأدعه ، وكأن مجرد التفكير فى الانفصال عنه يملؤنى حزنا . لقد تمنيت لو أبقى بين ذراعيه طول الخلود !

« عنــــان »

وكان من الممكن ان يقال أيضا ان « عنان » بطلة مسرحية « الخروج من الجنة » هى حواء الحادية عشرة لولا انه نفى ذلك أيضا ، وقال :

— هذه المرأة من صنع خيالى ، وكنت اتمنى ان التقى بها فى الواقع :

و« عنان » فتاة ارستقراطية مثقفة ، تحمل فى أعماقها بذرة الخلق ليس لكى تصبح أما ، وانما لتكون على مثال « بيجماليون » الذى صنع تمثالا من الرخام ، وطلب من الالهة ان تدب فيه الروح ، ليصبح بشرا سويا .

فقد تزوجت « مختار » ابن الذوات العاطل بالوراثة ، ليس من أجل ثروته ، وانما لأنها كانت تقدر مواهبه كشاعر ، وتريد ان تكون ملهمته ، لتغرس فيه بذرة الفن ، حتى يصبح شاعرا كبيرا .

لقد جملت حياته بالحب ، وجعلته ينعم بالسعادة ، فكانت له كجارية من جوارى هارون الرشيد ، ترتدى الغلالات الرقيقة الشفافة ، ذات السراويل الفضفاضة وتتعطر بعطر البنفسج كأنها شهرزاد فى ألف ليلة وليلة . .

واذا بها تفاجأ بأنه شاب خامل النفس ، يؤثر حياة اللهو والفراغ على حياة المجد والشهرة .

ولذلك أرادت ان تذكى فيه موهبة الشعر ، عن طريق الاكتواء بنعمة الألم ، فتطلب منه الطلاق رغم ما تكنه له من حب ، وتضحى بسعادتها بالخروج من الجنة ، لكى يتألم ويشعر .

ولقد نجحت فى تلك الفكرة ، وخلقت منه شاعرا .

الفصل الرابع

المرأة . . كملهمة

★ أثر المرأة بين الحلم والواقع .
★ عندما قال سارتر ان المرأة فى مسرح الحكيم تفوق الرجل فى الذكاء .
★ اهى آلة للحب والالهام ؟
★ نشيد الانشاد اقدم نشيد للحب وضع منذ ثلاثة آلاف عام .

« ملاك الوحى الالهى »

واذا كان « عدو المرأة » قد صور المرأة على مثال كأس الشر ، وجعلها رمزا للحية والشيطان ، فان « حبيب المرأة » قد صورها أيضا على مثال عرائس الشعر والفن والخيال ، فى صورة الملاك الذى يبعث على الوحى والالهام .

تحدث عن المرأة كملهمة فى كتاب « تحت المصباح الأخضر » فى كلمة بعنوان « أثر المرأة فى أدبائنا المعاصرين » قال فيه :

— ان كل ما يعنينى اليوم من أمر أدبائنا المعاصرين هو ذلك الجانب المجهول المستور الذى لا يحبون ان يكشفوا عنه للناس ، ان أدباءنا بحكم ثقافتهم واطلاعهم فى تاريخ حياة العظماء ـ ان المرأة كانت فى أكثر الأحوال ذات أثر بارز ، لا فى تلوين حياتهم وحدها ، بل فى توجيه أعمالهم وتصريف أقدارهم ، فهناك ملكة سبأ فى حياة سليمان ، وكليوباترا عند قيصر وانطوان وجوزفين مع نابليون ، وهيزيت فى عمل رينان ، وملتون وابنته وكارل ماركس وزوجته وابراهام لنكولن وقرينته ، بل عند خديجة والنبى محمد ومؤازرتها إياه فى مبدأ جهاده ، ثم أثر بقية النساء فى حياته ، فلولاهن ما نزلت بعض آيات القرآن .

ذاك أثر المرأة فى الأنبياء والعظماء ، أما أثرها فى الشعراء والأدباء ورجال الفكر ، فهو يكاد يعد فى حكم الناموس ، فما من شاعر أو أديب أو فنان عاش كل حياته وأنتج كل عمله بعيدا عن امرأة أو شبح امرأة أو ذكرى امرأة . ان عبارة « فتش عن المرأة » ينبغى أن ترسخ فى ذهن كل مؤرخ يتصدى لدرس شاعر أو أديب أو فنان « فتش عن المرأة » عند أهل الفكر أو الفن ، فتأثيرها فيهم شديد ، ان وجدت فى حياتهم وان لم توجد ، وهنا قوتها ، فهى تؤثر بوجودها واختفائها ، وهذا ما حدث

بالفعل ، ويحدث كل يوم فى كل تلك الكتب التى تظهر بين آن وآن ، حاوية لتراجم هؤلاء الرجال ، باحثة ظروف تأليفهم ومؤثرات أعمالهم .

ثم راح يفتش عن أثر المرأة فى حياة وأعمال نخبة من الأدباء المعاصرين فى الأربعينات من أمثال طه حسين ومحمد حسين هيكل والعقاد والمازنى وأحمد حسن الزيات وزكى مبارك ومصطفى عبدالرازق .

وقدم ذلك بتلك الكلمة :

— آه . الويل للمؤرخ الذى يفعل ذلك . انه لن يستطيع فى سهولة ان ينفذ الى حياة أدبائنا الخاصة ، فهم مازالوا فى حالة « حجاب » وقد وضعوا على منابع وحيهم ومصادر مشاعرهم الخلاقة نقابا كثيفا كنقاب المرأة المصرية قبل السفور . انهم مازالوا يحمرون حياء دونه حياء العذارى كلما لمس أحد الباحثين ذلك النقاب الذى يخفى عواطفهم الدفينة أو ذكرى حفقات قلوبهم القديمة . ولم يؤمنوا بعد بأن طبيعة عملهم تقتضيهم ان يصدقوا الناس والتاريخ عما فى نفوسهم من مشاعر خفية . فما الفنان إلا رجل عرض قلبه ونفسه للتشريح العام أمام البشرية .

ويدعو الى ظهور المرأة الجميلة فى مجالس الأدباء ، كمصدر للوحى والالهام فيقول فى كتاب « من البرج العاجى » :

— التجارب هى احدى وسائل « العلم » ولعل ساعة « التجربة » هى أمتع لحظات العالم .

خطر لى مرة أن أقوم بتجربة غريبة ممتعة . ان أضع امرأة فاتنة بين طائفة من أدبائنا المعروفين ، ثم أنظر بعد ذلك ما يكون .. انى على ثقة انهم لن يناموا ليلتهم قبل أن يسطر كل منهم على الورق أشياء قد تكون من أجمل ما كتب .. ان المرأة الجميلة فى مجلس الأدب لها فعل السحر ، تستطيع بغير عصا ان تخرج جواهر بيان من أفواه الأدباء .

انا لا نكاد نجد أدبا من الاداب العظيمة لم يرو لنا خبر المرأة فى مجلس أهل الأدب .

فاذا رجعنا الى الأدب العربى القديم ، وجدنا ذكر الجوارى اللواتى كالشموع الضاربات بالعود ، اللاعبات بالنرد ، الراويات للشعر .

واذا نظرنا فى آداب الغرب فى كل عصر وجدنا أخبار « الصالونات » وما فيها من أقمار كلهن ذكاء وثقافة ودلال .

نعم . وهل يمر يوم على أديب من أدباء الغرب ، لا يجلس فيه الى مائدة تزينها باقات النساء الجميلات ، فيلبث ساعة يتحدث الى ملكين رقيقين عن يمينه ويساره ، يقطر الوحى من شفتيهما ، ثم يعود الى عزلته وكتبه وورقه ليمضى فى انتاجه الأدبى ، هذا الانتاج الذى نراه بعد ذلك آية من آيات الاعجاز .

أما نحن فلا عرب بلغنا ولا غرب ، ولا شموس حولنا ولا أقمار . ولكننا أدباء كالعناكب ننسج فى الظلام ، ونعيش فى الجدب والحرمان .

اللهم انا شهداء . اللهم انا شهداء .

والحب الملهم فى رأيه ، هو الحب من طرف واحد . ، فهذا النوع من الحب مستوقد تخرج منه نار مقدسة ، تجعلنى ـ كما يقول ـ أشعر كأنى أجلس أمام مدفأة ، فيتدفق دمى حارا ساخنا فى عروقى ، فأنهض على الضوء للكتابة .

« عرائس الشعر والخيال »

وتطل عليك من خلال رواياته ومسرحياته نماذج مثالية للمرأة الملهمة . فتلتقى فى كوميديا « رصاصة فى القلب » بالفتاة الأرستقراطية « فيفى » التى أحبها البطل « نجيب » من أول نظرة ، وحاولت ان تصنع منه شيئا ، عندما جعلته يشعر بشىء ، لم يكن قد عرفه من قبل ، وهو « نعمة الألم » .

وعلى هذا المثال ، تلتقى فى « الخروج من الجنة » بشخصية المرأة المثالية « عنان » التى ضحت بهنائها العائلى فى جنة الحياة الزوجية ، لتصنع من البطل العاطل ابن الذوات مختار شاعرا مرموقا .

والمرأة بين الحلم والواقع فى « بيجماليون » الذى صنع تمثال « جالاتيا » وعشقه وطلب من الالهة ان تبعث فيه الحياة ، ثم عاد يطالب بأن تعود كما كانت تمثالا من العاج ، لتظل خالدة فى دائرة الفن ، حتى لا تدركها الشيخوخة ويحصدها منجل الموت فى دائرة الحياة .

وعاد يعزف على وتر المرأة كملهمة فى « العش الهادىء » لكن « درية » زوجة الكاتب « فكرى » كانت على العكس عدوا من ألد أعداء الوحى والالهام .

وفى « شهرزاد » مثالان متناقضان للمرأة ، فى شخصية الملكة الخائنة « بدور » وشخصية « شهرزاد » الملكة المثالية التى تعتبر رمزا للمعرفة والحكمة فقد افتدت بنات جنسها العذارى من بطش « شهريار » ثم خلقت منه انسانا جديدا وجعلته يخرج من دائرة الغريزة والشهوة ليصبح عقلا خالصا يطلب المعرفة .

« بريسكا الجدة والحفيدة »

ورسم فى « أهل الكهف » شخصيتين متناقضتين للمرأة ، الأولى شخصية بريسكا الجدة بنت الملك الوثنى دقيانوس ، التى هداها الوزير مشلينيا الى المسيحية ، قبل ان يأوى فى الكهف أكثر من ثلثمائة عام ، والثانية بريسكا الجديدة التى كانت فى العشرين عند خروج « أهل الكهف » والتى أحبها مشلينيا على اعتبار انها بريسكا القديمة ، التى حملت اسمها وطوقت عنقها بصليبها المهدى اليها من حبيبها مشلينيا فى ذلك الماضى البعيد .

وقد بادلته بريسكا الحفيدة الحب ، وهو يعيش خارج اطار الزمن . ولما عاد مع صاحبيه الى الكهف مستسلمين الى رقادهم الأخير ، أمروا والدها الملك ان يسد عليهم الغار ، ليكون قبرا لهم كأولياء ، تسللت اليه لتموت معه ، وهى تقول لمؤدبها غالياس :

— اذا سألك الناس عنى . ماذا ستقول لهم ؟

— قديسة .

— لا . بل قل : انها امرأة أحبت .

وفى السلطان الحائر دفاع عن المرأة الغانية ، التى اشترت بمالها السلطان العبد الرقيق ، وأبت ان تعتقه إلا اذا رفع عنها ظلم المجتمع الذى وصمها بالعار ، وهى منه براء .

والمرأة فى « سليمان الحكيم » وهى بلقيس ملكة سبأ ، التى أحبها سليمان ، بينما أحبت أسيرها منذر الذى لم يكن يجاوبها الحب .

ولم يستطع النبى سليمان بما أوتى من الملك والقدرة والحكمة ، ان يستميل قلبها اليه .

وفى « لعبة الموت » رسم صورة مثالية للمرأة كملاك طاهر برىء فى

شخصية « كليوباترا » الراقصة فى ملهى ليلى بسيط .

لقد نصب لها أستاذ التاريخ عاشق كليوباترا القديمة فخا ليدمرها به أبشع تدمير ، بينما وقفت الى جانبه لتغرس فى نفسه التى شوهها الاشعاع الذرى ، بذرة الخير بدلا من بذرة الشر .

والمرأة فى « شمس النهار » رغم انها شخصية أسطورية على مثال « شهرزاد » فانها شخصية عصرية تمثل المرأة الجديدة المتمردة على حياة الخدور وتريد المساواة بالرجل ، والمشاركة معه فى العمل .

ورفضت بنت السلطان الزواج من طبقتها العالية ، لتتزوج صعلوكا لتكافح معه فى الحياة ، ويصنع كلاهما من الآخر شيئا ، على طريقة بجماليون .

« أذكى من الرجل »

والمرأة فى مسرح عدو المرأة القديم وحبيبها الجديد ، ليست ملاكا مقدسا يبعث على الوحى والالهام ، أو مخلوقا مثاليا ، يبعث أيضا على الاحترام والتقدير فحسب ، بل هى كذلك تفوق الرجل فى الذكاء ، على حد تعبير الفيلسوف الوجودى جان بول سارتر .

فقد أدلى بحديث الى « الأهرام » بعد وفاة سارتر ، سئل فيه :

— هل حدثك عن مسرحياتك ؟ فأجاب :

— نعم . قرأ مسرحياتى المنشورة بالفرنسية . وقال لى رأيا طريفا قال : انه لاحظ ان النساء فى مسرحياتى أذكى من الرجال .

وأضاف الحكيم قائلا :

— وهذا ما لم تلاحظه المرأة وبالأخص فى بلادى . فقد شاعت عندهن فكرة « عدو المرأة » .

وعلل فكرة هذا الذكاء بأنه من أسباب عدائه للمرأة ، فقال :

— واذا كان ذلك صحيحا فلا تعارض هناك ، لأن ذكاء المرأة يستوجب الخوف منها ، والخوف قريب من العداوة ، فنحن نخاف من الحياة ، ولذلك نكرهها ونعاديها ، والمرأة كانت صديقة الحية ، قبل خروج آدم من الجنة .

لكن الصورة المثالية ، التى انشأ عليها شخصية « ايزيس » تنفى عنه صفة العداء .

فقد علق على تلك الشخصية الدكتور محمد مندور فى كتاب « مسرح توفيق الحكيم » فقال :

— الملاحظة التى تستلفت النظر فى هذه المسرحية ، فهى تغير نظرة المؤلف الى المرأة تغيرا أساسيا ، حيث نراه يمجد المرأة ، ويمجد الزوجة

فى شخصية « ايزيس » ويمدح موقفها الايجابى الفعال فى الدفاع عن زوجها « اوزيريس » وولدها « حورس » والكفاح فى سبيل المثل الأعلى .

ويضيف الدكتور مندور قائلا :

— فأين هذا من موقف عدو المرأة السابق وشكه فى اخلاصها وقدرتها .

« أهى الة للحب »

وقد أخذت عليه الدكتورة سهير القلماوى عداءه للمرأة ، التى يتخذها فى نفس الوقت مصدرا للوحى والالهام ، فقالت :

— انه يعكس فى رأيه فى المرأة قيم عصره لا القيم الجديدة ، فالمرأة الحديثة ليست الهة كإيزيس أو أسطورة كشهر زاد كما انها ليست آلة من آلات الحب تلهم الفن .

وأوضح على الراعى رأيه فى الفرق بين الغرام والزوجية من خلال مسرحية « بيجماليون » فقال :

— لقد صاح بيجماليون : أيتها الالهة ، لقد أخذتم فنى وأعطيتمونى زوجة . فالفنان الرومانسى يخشى رتابة الحياة المنزلية ، وانطفاء نار الالهام المقدسة ويرى فى المرأة خطرا مقيما ، تستهلك قواه الخالقية ، وتحولها الى بيت وأولاد ، بينما يريد ان يحول المرأة الى وحى والهام .

« المـرأة والحـب »

وتحفل مؤلفاته بقطع أدبية رائعة فى وصف الحب ومشاعر المحبين .

وصف فى « عودة الروح » مشاعر الحب فى قلب الفتى المراهق « محسن » يوم لقائه الأول مع حبيبته « سنية » التى كان يحتفظ لديه بمنديلها الحريرى سرا . وغنى لها فى هذا اليوم أغنية عبده الحامولى : « قدك أمير الأغصان » وهى تعزف له على البيانو ، فقال :

— أحس محسن فى نفسه بالحاجة الى ان يفضى بهنائه الهائل الى أحد . ولكن الى من ؟

وتذكر منديلها الحريرى الذى يحمله دائما ، كما يحمل أهل السنة المصحف الشريف .

فليخبر منديلها إذن .

وتاقت نفسه الى الانفراد والانزواء فى مكان قصى ليخلو الى نفسه ، وليلثم هذا المنديل العزيز وليبوح له كثيرا ، ويحادثه طويلا .

طفق يستعرض فى مخيلته كل شىء له صلة بحادث اليوم ، ولبث أخيرا يتذكر ويتأمل ، كيف كان اعجاب سنية وحماستها وقتما انتهى من الغناء ، وتلك الابتسامة التى نظرت اليه بها ، وهى تقدم له كوبا من شراب الورد مكافأة له ، كما كانت تقول ، وتلك الأيدى والأنامل التى قدمت الكوب ، وتلك البسمات اللذيذة والنواجذ والنظرات والأهداب .

وأقفل محسن عينيه كى يراها . ثم طلب النوم علها تبدو له فى حلم . ولكن هل يستطيع النوم تلك الليلة والقلب يقظان ، كأنه اله ؟ هرب النوم من عينى محسن ، وعلم انه لن ينام فى ليلته تلك ، إلا اذا أذنت له هى ،

وتذكر قول مهيار الديلمى :

« وابعثوا أطيافكم لى فى الكرى

ان أذنتم لعيونى ان تنام »

ويصف سعادته ، وهو ذاهب الى المدرسة فى صباح اليوم التالى ، ووجهه يطفح هناء ، والانشراح يكاد يثب من صدره ، وخيل اليه وهو فى الترام فى الطريق الى المدرسة ، ان الله لم يخلق صباحا أجمل من ذلك الصباح .

ويرى ان الحب الشعرى الذى يدخل فى اطاره القمر والشمس والنسيم والزهور والندى ، لا تدركه طبيعة المرأة الريفية بل والحضرية أيضا .

فى رواية « حمار الحكيم » يدور حوار بينه وبين المخرج السينمائى فى هذا المعنى ، قال فيه :

— لا شىء يخلق فى المرأة رغبة فى التجمل والشعور بكل ما هو جميل غير الحب النبيل ، كل ما يدرك من أمر الحب هنا (يعنى فى الريف) انما هو حب الحيوان أو حب العبيد ، شىء مباشر وضيع زهيد ، يأتى ويذهب فلا يخلف أثرا غير الأثر المادى البيولوجى الذى يخلفه عادة بين طائفة القرود أو الزنوج .

أما ذلك الحب الذى يأتى فيفتح العيون والنفوس على ألوان من الحسن وضروب من الاحساسات الرفيعة ، ولا يذهب حتى يترك صاحبه وقد تكون تكوينا جديدا ، وسما على نفسه سموا ملحوظا ، ذلك الحب الذى كان دائما خير مدرسة للمشاعر البشرية العليا ، ذلك الحب الذى كان دائما النبع الذى انبثق منه الفن والجمال ، عماد الترقى الانسانى ذلك الحب لا يمكن ان يوجد الآن فى هذه البقاع لأن وجوده معناه ان الانسان الأعلى قد وجد لأن العلة هى دائما العلة وان الحب الرفيع لا يظهر مطلقا فى جو العبودية ولا ينبت إلا فى أرض الحرية الروحية .

والمرأة المصرية ربيبة الجوارى لم تكن تفهم من الحب إلا ما تفهمه الجارية المملوكية ان الحب الرفيع زهرة ينبغى ان تتساقط بذورها من السماء ، وليس فى جو الحريم المغلق .

وهذا الحب ليس مجهولا عند نساء الريف وحدهن ، بل وعند نساء المدن المتعلمات أيضا ، لأن روح الجوارى البيض مازال كامنا فى هؤلاء وأولئك على السواء .

ولو وجد هذا الحب فى الريف والمدن لوجد الفن العظيم فى الحال .

« الحب بين الأوربية والمصرية »

ويقارن بين الحب لدى المرأة الأوربية والمصرية ، فيقول :

— انى باعتبارى روائيا لا أستطيع ان أتصور حوارا رائعا بين مصرية ورجل تحبه ، لو وجد الاثنان فى حديقة مقمرة ماذا يقولان ؟

فهى مازالت على الرغم من حريتها المادية تحس كأن شيئا سجينا فيها ، انها لا تدرى ماذا تقول لحبيبها عند اللقاء ، فليس فى تاريخ عصورها القريبة ما يسعفها وليس فى ألفاظ لغتها العادية ما يواتيها لساعتها . وليس فى مداركها ومخيلتها ما ينقذها ، ان الأوربية تتكلم فى الحب وأمامها صورة بياتريس الالهية حبيبة الشاعر دانتى ، ولوروادى توفس ملهمة بترارك ، وتتمثل ما جرى بينهما من نبيل الحوار وتتذكر ما تعلمته من جميل الشعر والأحاديث والمثل العليا التى يوجهها الحب النقى الطاهر .

« العواطف كاللآلىء »

ووصف عاطفة الحب فى « عصفور من الشرق » عندما رأى فتى وفتاة من أهل باريس ، يتعانقان فى الطريق ، ويقبل أحدهما الآخر ، علانية كما اعتاد الباريسيون ان يفعلوا غير حافلين بعاذل أو رقيب فقال :

— فازور محسن عنها برأسه غير راض ان تعرض العواطف هذا العرض فى الشوارع والطرقات ، فتبتذل وهى التى ينبغى لها ان تحفظ فى الصدور كما تحفظ اللآلىء فى الأصداف .

وفرق بين هيكل الفن وهيكل الحب ، فقال :

— كلاهما واحد ، أحدهما حال فى الآخر ، كالنور فى المصباح .

« الجنس فى ليلة الزفاف »

وقدم لقطة مثيرة لممارسة الجنس بين عروسين فى ختام قصة « ليلة الزفاف » .

لقد اعترفت العروس فى ليلة الزفاف ، بأنها تحب شخصا آخر وانها تزوجته مرغمة ارضاء لأهلها .

وكان معنى هذا ان الحياة بينهما أضحت مستحيلة ولابد من الطلاق . لكنهما اتفقا على ان يعيشا معا فترة من الوقت ، يتظاهران فيها أمام الناس بأنهما زوجان سعيدان ، الى ان تسنح الظروف بالطلاق .

ومضت بهما الحياة ، تحت سقف واحد ، يعيشان منفصلين فى غرفة واحدة ، فقد ترك لها السرير لتنام عليه ، واختار لنفسه حشية ينام عليها فى ركن الغرفة .

أحسن معاملتها كضيفة لا زوجة ، لكنه هجرها وكان كثير الغياب عن البيت يخرج مبكرا ولا يعود إلا فى وقت متأخر من الليل .

فبدأت تشعر نحوه بعاطفة الحب ، وتغار عليه من الأخريات .

كان كلاهما يمثل أمام الأقارب ، ان الحياة بينهما لا تطاق تمهيدا للطلاق ، فلما انفردت به عاتبته على ذلك ، على اعتبار ان هذا التمثيل قد تحول من جانبه الى كراهية ، فصاح مناديا لها بكلمة التدليل ، التى ناداها بها فى ليلة الزفاف قبل الاعتراف الخطير قائلا :

— سونة .

فتهتف قائلة :

— لم أسمع منك لفظ « سونة » منذ دهور . لم كل هذا الخوف منى ؟

— ليس منك ، ولكن على كنوزى ، كنوز البخيل التى ادخرها فى قلبه . نامى يا سونة الآن ، وفى الصباح نفكر وقد يأتى الفرج .